إبراهيم إسماعيل الصعب

الياسمين المعذّب

اليَاسمِينُ المُعذَّب

الياسمين المُعذّب

مجموعة قصصية للكاتب:

إبراهيم إسماعيل الصعب

جميع الحقوق محفوظة

إصدارات منشورات الأنيس

ISBN: 978-9947-725-14-5

الإيداع القانوني: جانفي2025

تصميم الغلاف: المصمم بابلو

الإخراج الفني: امال بلبخوش

تدقيق: مفيدة فليسي

رقم الهاتف: 0665822986

الايميل: Manchouratelanis@gmail.com

العنوان: دالي إبراهيم العاصمة

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح نسخ أو استعمال أو اعادة اصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو الكترونيا أو بأي وسيلة أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون اذن خطي من الناشر، نستثني منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في االعرض

المقدّمة:

في البداية أودُّ السّلام عليكم، وأعرّفكم بنفسي: إبراهيم اسماعيل الصّعب، كاتب وقاصٌّ من بلد الياسمين، سوريا، ولدت بمحافظة إدلب الخضراء من منطقة اسمها جبل الزّاوية، من قرية اسمها بسامس، عانيت كما عانى كلُّ أبناء شعبي من الظّلم والقهر، من الاستبداد والحرمان، وعلى مدار سنوات كثيرة كنت ضدّ الظّلم والعدوان ولم أدَّخر أيّ جهدٍ في سبيل الكشف عنٍ كلّ مجاري الحياة الّتي كنّا نعاني بها، سخّرت قلمي ونفسي خدمةً لأبناء شعبي، وها أنا اليوم أضع بين أيديكم حجم المعاناة، بطريقةٍ أدبيّةٍ، تتلمّس القلوب والأنفس وتفتح كوى جديدة للنّور الّذي انبلج من بعد ليلٍ مظلم، وخالص أمنياتي وتحيّاتي لكم أيُّها الشّعب العظيم...

الإهداء:

إلى كلّ من وقف معي ودعمني على مدار سنوات طوال.

إلى كلِّ أبناء شعبي المكلوم، وأخصُّ بالذّكر آنستي ومعلّمتي عفاف الرّشيد الّتي كانت أكبر داعمٍ لي. إلى الكاتبة مفيدة زروالي والّتي كانت من كبار داعمي وأكثرهم إيماناً بي.

وأخصُّ بالذّكر كلَّ أهلي وإخواني من بلدي الثّاني الجزائر الّذين آمنوا ووثقوا بي وكانوا أكثر النّاس حبَّاً وأثراً بقلبي... لكم منّي خالص تحيّاتي.

1- غربالٌ أم كتاب؟

بنهاية الرّبيع وبداية الصّيف، عندما يجفُّ القمح على سنابله، وبعدما يجزُّ المنجل تلك السّنابل ويُؤخذ القمح منها، يأتي موسم البرغل في القرية، الموسم المحبّب للأطفال حيث يجتمعون كلٌّ بصحنه ويقصد رائحة دخان الإطارات المشتعلة حتّى يملأ صحنه بما يسمّى السّليقة وهي القمح المطبوخ، هذا حال أطفال كلّ القرى قديماً أمَّا بالنّسبة للنّساء فكلّ واحدة منهنّ تنتظر دورها للحصول على الحلّة الكبيرة، أذكره جيّداً ذلك اليوم الّذي جاءت أمّي بتلك الحلّة العملاقة وملأتها بالقمح، وهمَّت بإشعال النّار ولكنَّها لم تجد ما يمكّنها من إشعالها، فالحطب الكبير يحتاج شيئاً حتّى يشعله ولكنَّها لم تكلّف نفسها بإحضار القشّ اليابس وإشعال النّار به، كنت حينها ألعب بعيداً عنها ولكنّني أكاد أسمع صوتها، صرخت بأعلى صوتها بأن أذهب لبيت معلّم القرية فهو حتماً يملك الكثير من الكتب المدرسيّة المنسّقة ولا ضير بأن آخذ واحداً حتّى تشعل أمّي النّار بصفحاته، ذهبت مسرعاً إلى بيته ولكن لسوء الحظّ لم أجده في البيت، ولكنّ زوجته كانت متواجدة، تلك الزّوجة الأميّة الّتي لا تجيد القراءة أو التّمييز بين الكتب المدرسيّة وغيرها، ولكنَّها كانت ذات قلبٍ طيّبٍ ونقيّ، تتصرّف على طبيعتها، فأمسكت برأسي وطبعت على خدّي قبلة ثقيلة، وأخذت بيدي إلى غرفة صغيرة حيث تتواجد أكوام الكتب، كان المدرّس يحتفظ بالكثير والكثير من الكتب، سمعتها تهمهم بكلماتٍ بحقّ زوجها، ذلك العجوز الخرف متى يرمي كلَّ تلك الكتب، أمّا كفّاه ما حلَّ به بسببها، لم أفهم ما قالته ولكنَّها أخرجت كتاباً أصفراً وعليه بقع من الوحل، كانت تنبعث منه رائحة الرّطوبة وبعض صفحاته أصابها العفن، لا يهم

هذا فالنّار لا تعرف طعم الكتب، المهمّ أخذت الكتاب وعدت مسرعاً إلى أمّي الّتي سوف توبّخني على تأخّري، وبالفعل هذا ما حدث لأنّي تأخّرت بالفعل ففي الطّريق لاحقت دجاجةً ولم أستطع الإمساك بها، كنت شقيّاً حينها ونلت عقابي، أخذت أمّي ذلك الكتاب وأشعلت به النّار، فأخذت الصّحن ووضعت به السّكر وجلست أنتظر السّليقة، وبعد عدّة ساعات نلت كفايتي وأكلت حتّى لم أستطع الحراك، أخذت أمّي الحنطة المسلوقة إلى السّطح وجفّفتها، وبعد عدّة أيام أخذتها وطحنتها حتّى تحصل على البرغل الّذي سوف يكون طعامنا طيلة فترة الشّتاء، أتت أمّي بالبرغل إلى البيت بعد طحنه فاحتاجت غربالاً حتّى تفرز النّاعم منه من الخشن، صاحت عليّ وقالت لي اذهب وأحضر لي الغربال من عند زوجة المعلم، ولكن ذهني حينها كان مشتّتاً، ففي الطّريق نسيت ما أرسلت لأجله، هل تريد أمّي غربالاً أم كتاباً، لا أعرف، طرقت الباب فخرج المعلّم الّذي كان نحيلاً طويلاً وقد بانت عظام وجهه، وقال لي: تفضّل ماذا تريد؟ تلعثمت وقلت أريد كتاباً حتّى تشعل أمّي النّار، فظهرت زوجته وقالت لقد أخذت واحداً منذ عدّة أيّام، عند هذه اللّحظة كأنّ تيّاراً كهربائيّاً ضرب المعلم وركض إلى غرفته وعلم بفقد الكتاب، احمرّ وجهه وتلون بكل الألوان ، وبان عليه الغضب الشّديد، عند هذا الموقف تذكّرت أنّي أريد غربالاً، فقلت أريد غربالاً لا كتاباً، ولكن ما ينفع الكلام حينها، دخلت المرأة وأتت لي بالغربال، ولم أمضِ بعيداً حتّى علا الصّراخ بينهما، وكأنّها ساحة معركة، فهي تقول له أما كفاك ما نلته منها؟ لِمَ أخرجتها من التّراب؟ أ تريد مزيداً من العذاب؟ يكفينا ما نلناه من الأمن ومن تلك الدّوريات، انظر إلى قدميك فالحفر الّتي بها شاهدةٌ على الّذي نلته بسببها، وهو يقول لها أنت لا تفهمين، فهذه الّتي سوف تخلّصنا من شرورهم، أحسست حينها بأنّه يودُّ البكاء على كتابه ولكنّه لم يقدر، عند هذا الحدّ أطلقت ساقيَّ لرياح الصّيف، رغم أنّ الغربال الكبير أسقطني

عدّة مرات ولكن لا يهم، فما أريده هو العودة إلى البيت والاندساس بحضن أمّي، كنت خائفاً حينها من ردّة فعل المعلّم، وعند وصولي إلى البيت وكنت ألهث حينها أمسكتني أمّي وقالت: أما كفاك مطاردة للدّجاج؟ ضحك أبي من مكان جلوسه على المسطبة الطّينيّة، أخذت أمّي الغربال وأنا ذهبت وشربت الكثير من الماء، ثمّ عدت إلى أبي وقصصت عليه ما سمعته، وهو يصغي إلى كلماتي وكأنّ جسده قد تحجّر، حالي كحال باقي الصّبية فضوليٌّ دائماً، لا أخفي أنّني ظننته كتاباً سحريّاً يحقّق الأماني، فقلت: ما ذلك الكتاب؟ أريد أن أحصل على واحدٍ منه، عند هذه الجملة جاءت صفعة قويّة على وجنتي أصابت وجهي بالخدر، فهربت إلى حضن أمّي واختبأت به وأنا أشهق بأنفاسي من شدّة الألم، وبدأ الشّجار بينهما، وقالت له أنّي لا أعلم ما أعنيه، لست سوى طفل لا أعلم ما أقول، فردّ عليها: أعلم هذا ولكن من يقنعهم إذا سمعوا كلامه بأنّي لا أملك مثل تلك الكتب، أ تريدين أن أتعفّن بالسّجن؟ عند هذا الحدّ نمت بحضن أمّي، حالي كحال بقية الأطفال ولم أدرِ ما حلَّ بعدها، وبعد عدّة ساعات استيقظت وغابت تلك الحادثة من رأسي ولكنّي احتفظت بها فالصّفعة الّتي نلتها ثبّتت تلك الحادثة، عدت إلى مطاردة الدّجاج واللّعب مع أطفال الحيّ، لا أخفي أنّ أبي كان يراقبني ويراقب كلماتي، هل سوف أنطق باسم تلك الكتب أم لا؟ مضت الأيّام مسرعة وأصبحت شابّاً، بدأت ثورة في بلادي ضدّ الحاكم الظالم، وأنا بحالة من الهتاف تذكّرت تلك الحادثة وعلمت أيّ كتاب أحرقت أمّي، تذكّرت البقع الطّينيّة عليه وكأنّه أمام عيني، تلك الصّفعة أحسست بها مجدّداً وكأنّي نلتها توّاً، علمت أنّ الكتاب يتحدّث عن الحرّيّة وحقوق الشّعوب، عدت إلى البيت وذهبت إلى والدي الّذي صار شيخاً كبيراً، قبّلت يده؛ تلك الّتي صفعتني وذكّرته بتلك الحادثة، ضحك حينها وبين ضحكاته غصَّ بكلماته وقال لي: أ تعلم أنّ حينها لو علموا بأمرنا لم نرَ ضوء الشّمس؟ فالمعلّم كان قد دفنها

وأنا أعلم بأمره وكنت قد حفظت سرّه، ورغم هذا نال ما ناله من العذاب لأنّه يقتني مثل تلك الكتب، تذكّرت حينها كيف تلعثمت بين الكتاب والغربال وكيف علمت الحقيقة بعد كلّ تلك السّنوات.

2- ما وراء النّور:

بكلِّ أمّة عظيمة لا توجد مسمّيات بل مسمّى واحد، لا توجد انتماءات بل انتماء واحد، لا توجد رسلات بل دين واحد، لا ألف قائد مبتذل بل قائد واحد، لا طيور جياع ولا ولا... ولا...

أطياف أنفاسي الأخيرة وتلك الجميلة لم تعطني إلّا عناقا أزاح آلام دمي المسفوح على بلاط الحكّام، تلك الجميلة الّتي يراها العامّة سيّدةً في القبح عادت ووضعت أقنعتها وتجمّلت لحاكم الزّقاق، همست بأذنه بصلبٍ جسدي أمام المارّة، حتّى أكون لوحةً لكلّ من أراد الحريَّة، لوحةً تعرج إلى طيف الجمال، تقطر الدّماء وتخلع طيفاً يعود إلى الشّرفات، إلى الأوراق الصّفر على رفوف مكتبتي المهجورة، هجران عاشقةٍ منعتها رمال الصّحراء من الزّواج ممّن تحب، لا تعرف الكتابة رغم قدرتها على القراءة، لا تستطيع البوح بما لديها من ألمٍ لأنَّ مَن حولها لا يملكون إحساساً، تلك العاشقة هي نفسي وأنفاسي، منذ كانت صغيرةً وسيف الزّمن يشحذها، يصقلها مرآةً لنور الشّمس في الفلاة، عرفت العشق من دون طفولة، تلك قصة أخرى أرويها عن حزني وآلمي، عن فقد بصري وتوقّف الزّمن، لم أكن أطلب سوى حقّي المشروع بالحياة؛ أن أكون حرّاً دون قيود، أن أصرخ بكلّ صوتي بوجه من أحال الحياة سجناً على أنفاس البشر، أذكره جيّداً ذلك اليوم، عند عودتي إلى بيتي كنت قد نلت علاماتٍ جيّدةً بجميع موادي الجامعيّة، توقّفت عند أقرب مجموعة يقال عنهم الأمن وهم بعيدون كلّ البعد عن مسمّاهم، لا تهمّ المسمّيات ببلدان الاستعباد والاستبداد، حينها توقّف الكون عن الدّوران للحظةٍ بنفسي، أحدهم نطق باسمي، لم أتحرّك، أصبت

بشلل أصاب جسدي، لم أنطق لا أستطيع، فقدت الرّؤية، كلُّ شيء بحوزتي من مشاعر وأحاسيس توقّف وحلَّ الخوف والرّعب بدلاً عنها، أُخرجت من السّيارة عنوةً، وربطت يداي وراء ظهري وأُغلقت عيناي، لم أكن أعرف ما هو الجرم، بدأت أفكّر وأعيد التّفكير، أيُّ أمرٍ فعلت؟ لم أجد أيَّ جواب، قذفت إلى سيارة أخرى كما تقذف النّفايات ولم أعد أعرف من أيّ مكانٍ كان يأتي الألم، وأكثر الآلام شدّة كان بسبب الحذاء الجلديّ الثّقيل الّذي يدوس على كلّ أنحاء جسدي حتّى فقدت الوعي، لم يكن هنالك ظلام ولا نور، فلم أكن حينها لا بقبر ولا بحياة، مرَّت سويعات حتّى استعدتُ الوعي بدلوٍ من الماء سكب على جسدي الملوّن، عندها ربطت بسلسلة حديديّة إلى يدي الّذي أمامي ولا يزال الضّرب والشّتائم تنهال علينا، ومن سيّارة إلى سيّارة أخرى حتّى وصلنا إلى مكان لا أعرفه ولا أراه، فكلّ تلك المدّة وأنا معصوب العينين، كان مكاناً يمكن القول أنّه الجحيم، رائحةٌ لا تطاق، لا يوجد أيُّ نور، كلّ ما هنالك أصوات العذاب والموت لا أكثر، جرّدت من ملابسي مع الضّرب، حلق شعر رأسي بأداة تستخدم للدّواب، وكان الّذي يقوم بحلق شعري مع كلّ سحبة يقوم بالبصق على رأسي، وأُدخلت إلى غرفة لا يوجد بها إلّا الظّلام، ضيقة كضيق القبر، يمكن القول أنّ القبر أفضل فبه تكون ميتاً لوحدك، أمّا أن تكون على قيد الحياة وبقربك جثّة هو أمرٌ آخر، مرَّ يوم كأنَّه سنة ولم يأتِ أحد، ثمّ يوم آخر وأنا من دون ماء أو طعام، وفي اليوم الثّالث عندما شارفت على الهلاك أتى أحدهم وسكب علينا سطلا من الماء، أنا وتلك الجثّة البريئة؛ الّتي من حقّها الدّفن ولكن أين ذاك؟ أُغلق الباب علينا، لم يهمّني البرد أو أيَّ أمرٍ آخر بقدر اهتمامي بالحصول على الماء، فلم يكن أمامي سوى لعق الماء من على الأرضيّة، رغم أنّ الماء قد اختلط بمفرزات الجثّة الّتي كانت معي، لم يعد الأمر يهم ولا حتّى الطّعم، فلا توجد لغة تصف الموقف، كلّ يوم يمضي

دون طعام كانت نفسي تتحوّل من النّفس البشريّة إلى نفس حيوانيّة، لا أخفي أنّي فكّرت بالأكل من الجثّة، ولكن لم أقدر، فقدت الإحساس بكلّ شيء سوى الشّعور بالأشياء الّتي تزحف وتمشي على جسدي دون توقّف، لعلّها ديدان أو أيُّ أمرٍ آخر فيمكن لكلّ شيء أن يوجد بذلك المكان، مرَّت الأيّام طويلةً حتّى أتى ذلك الشّخص وجرَّ جسدي على الأرضيّة حتّى وصلت إلى تلك الغرفة، لم يوجّه إليّ أيّ كلمة بل لم أحصل إلّا على الكثير والكثير من الضّرب، ثمّ أخذت إلى غرفة أخرى أسميتها فيما بعد غرفة اللّحم، فلا يمكن التّمييز بين جسد وآخر فالكلّ كان موضوعاً فوق الكلّ، أمرٌ ما دفعني إلى الشّوق إلى الغرفة الأولى، إلى تلك الجثّة، كان المكان به قدرٌ يمكنني تحريك شيء من جسدي ولا أؤذي أيّ أحد، البعض كان واقفاً وآخرون يجلسون بوضعيّة الكؤوس البلاستيكيّة المتراصّة فوق بعضها البعض، ما الذّنب الّذي فعله كلّ هؤلاء البشر؟ لا يمكن الحديث ولا النّطق، طالت فترة بقائي على هذه الحال حتّى بدأت أعرف من سوف يموت، وهو أمر يمكن لأيّ أحد تعلّمه، فما إن يأتي صاحب الحذاء حتّى يُخرجَ أحدنا ويقتله، كان كلّ واحدٍ منّا يتمنّى أن يكون هو ولكن حتّى هذا الأمر لا يحقّ لك، العشوائيّة وحدها هي الحاكمة، كانت مدّةً طويلة لا أستطيع حسابها حتّى أتى صاحب الحذاء الجلديّ وأخذني جرّاً، توقّعتها النّهاية، أُدخلت على الغرفة الّتي بها شيطان آخر ولكن دون حذاء جلديّ، بدأ السّؤال، بل الجواب المسبق، أنت درست بمدارس القائد وجامعته واستخدمت علمك لمناهضته، أكلت من خيره وهتفت أنّك لا تريده، اتّبعت ديناً غير دينه، أ لا تعرف أنّه قائد إلى مماتك؟ تذكّرت أنّني نطقت بالحريّة، ما تقول؟ إنّه مجرّد كلام يا سيّدي.

لم يعد الكلام بل أشار إلى صاحب الحذاء وبدأ بضربي بكلّ قوّته الحيوانيّة، وأخذت إلى غرفة أخرى كانت أشدّ قسوة من سابقتيها فالأرضيّة كانت مغطّاة بالملح، ما يزيد من آلامك ويحرق

جروحك المتعفّنة، أُلقيت على الأرضيّة الحارقة لا أستطيع أيّ حركة بل كنت آخذ أنفاسي بصعوبة، بتلك الفترة بدأت أحدِّث نفسي وأفكّر بالخارج، من المؤكّد أنَّهم سوف يأتون لمساعدتي فأنا أعرف الكثير من القادة، من المؤكّد أنّني سوف أشبع بعد جوعي فأرضنا بها الكثير من الخير، سوف يزول ذلك الظّلم، وكلَّي أملٌ بالخروج، فما هي إلّا أيام قليلة وننتصر على تلك الطّاغية، كانت نفسي تنبض بالأمل وتعيش عليه، سوف يأتون محرّرين لنا ويطردونهم إلى غير رجعة، هذا ما كنت أحدّث به نفسي بكلّ الأوقات، لا أخفي أنّ الطّعام لم يكن ذا نفع مثل تلك الكلمات، رغم أنّني الّذي قلتها وصدّقتها، هذه الفترة كانت قصيرة نوعاً ما حتّى تمّت إعادتي إلى ذلك الشّخص الّذي علمت لقبه فيما بعد وهو الخفّاش فلم يكن يظهر سوى في اللّيل، كرَّر عليَّ ذات الأجوبة وأنا كرَّرت إنكاري، هذه المرَّة كانت ردّة فعله كبيرة وبدأ بالصّراخ والشّتائم وأمر صاحب الحذاء بتعذيبي، كان بيديه سلك ثخين فوجَّه إلى رأسي ضربة أصابت عينيَّ، فأُصبت مباشرةً بالعمى أحسست للحظة بالدّماء تخرج من عيني وتسيل على وجهي، سحبت كالجثّة وأُخذت إلى الغرفة الّتي سحلتُ إليها في المرّة الثّانية، تلك الغرفة الّتي شهدت أسمى معاني الإنسانيّة على الإطلاق؛ فخلال فترة غيابي عن الوعي الّتي استمرّت أكثر من أسبوع وضعت بمنتصف الغرفة المكتظة بالأجساد، ولتوفير مساحة لي قام الرّجال بالوقوف فوق أقدام بعضهم البعض، وآخرون مزّقوا ما تبقّى من ثيابهم وجعلوها ضمّادات لعيني، حتّى قام البعض منهم بإذابة الخبز ودفعه بفمي حتّى لا أهلك من الجوع، فيما بعد علمت أنّه قد تمّ إمضائي على كلّ تلك الأجوبة، بعد أسبوع استفقت وبالكاد أستطيع تحريك جسدي، رغم أنَّي لم أعد أستطيع الرّؤية ولكنّني شاهدت نظرات البشائر على وجوههم، وكأنَّ نظراتهم تقوم برعايتي، من الأمور الّتي لا أستطيع ردَّها مهما فعلت؛ حيث قام أحدهم بالبكاء فوق

عيني حتّى يوفّر دموعاً لعيني حتّى تشفى وتتعقّم، إنّه أمرٌ لا تستطيع البشريّة ردّه، مرّ شهر على تلك الواقعة وبدأت أستطيع الجلوس، كنت أسمع سقوط الرّجال من الإرهاق لفترات الوقوف الطّويلة حتّى يتمّ توفير المساحة اللّازمة لجلوسي، وكلّ هذه الأمور كان يعلم بها ساجنونا، وهم يدركون أنّنا لو خرجنا لقضينا عليهم، فكلّ معاني الإنسانيّة قد اجتمعت، حتّى الصّلاة لم تكن لتفوت على أحد منّا رغم أنّنا نعلم مصير من يشاهد وهو يصلّي فكان الالتزام على أشدّه، لا نورٌ ولا ظلام، هكذا كانت الحياة الّتي أعيشها حتّى النّطق بدأت أفقده وما يزداد بداخلي هو الإحساس بأمور لا يستطيع المبصرون الإحساس بها، فالموت والحياة أمران كنت قادراً على تمييزهما، فالموت لا يأتي إلّا بعد تآكل الرّوح فكنت أبكي بكثير من اللّيالي للإحساس بالموت الّذي سوف يخطف أحدنا، ولكنّي لم أكن لأنطق بأيّ كلمات تزيد من الألم، فترة طويلة مرّت عليَّ في السّجن حتّى أتى اليوم الّذي قرّر السّجان أخذي والإلقاء بي خارج السّجن، أتى اثنان من السّجان وقاموا بسحبي على الأرضيّة، لم أكن لأتجرّأ على سؤالهم، قاموا بقذفي بسيّارةٍ وأخذوني إلى مكان مجهول وقام أحدهم بركلي حتّى وقعت على الأرض، لم أتحرّك لاعتقادي أنّني ما زلت في السّجن، بدأت أشمّ روائح مختلفة، أسمع أصواتاً بشريّة، ورغم هذا لم أكن لأصدّق أنّني خارج ذلك الجحيم، أحاطني مجموعة من المارّة وقام أحدهم بمساعدتي على النّهوض، لم أنطق حتّى قال أحدهم: من أنت يا عم؟ ويا لسخرية القدر لم أتجاوز حينها الثّلاثين، لم أجب حتّى نطق آخر: ما هو اسمك؟ هنا أيقنت أنّني خارج السّجن، أخبرتهم باسمي وبمكان سكني وأخذوني إلي بيتي، عاد إليَّ الأمل بلقاء أمّي وأبي، أخي الصّغير أختي الكبيرة، اشتقت لأشتمَّ رائحة كتبي ومكتبتي، سمعت أحدهم يقول: كيف نقول له بشأن أهله؟ قلت له: ما أخبارهم؟ عمَّ صمت قاتل عادل سنوات السّجن حتّى أخبرني أحدهم بأنّ والديَّ قد ماتا كمداً

عليّ، أختي قد ماتت بقصف طائرة وأخي الّذي لم أكن لأعرف أنّه هو ذاته الشّخص الّذي بكى فوق رأسي وجعل دموعه بعيني ولم يخبرني بأنّه هو حتّى لا يزيد ألمي، كلُّهم قد ماتوا، طلبت إليهم أخذي إلى غرفتي، تحسّست مكتبتي الصّغيرة، لم تتغيّر قد بقيت على حالها، حتّى تلك الوسادة الصّغيرة الّتي لا أطيق النّوم دونها فهي من عند أمّي، كانت بموقعها، إنّها أمّي الّتي وضَّبت كلَّ شيء استعداداً للقائي ولكنَّها ماتت قبله، جلست على الكرسيّ الصّغير وطلبت بتركي وحيداً، آخر ساعةٍ بحياتي علمت ما الّذي حدث خارجاً، فلا يوجد قائدٌ واحد بل ألف قائد مبتذل، جاعت العصافير وماتت، علمت أنّ تلك الأمّة العظيمة لم تكن في الخارج بل كانت حبيسة وراء القضبان، لم يكن الانتماء موحّداً إلّا ضمن السّجون، تلك الأمّة العظيمة الّتي تحتاج التّحرّك، غصصت بأنفاسي، سقطت دموعي على الأوراق الصّفر على كتبي واحتضنت تلك الوسادة الصّغيرة حتّى تفتّحت عيناي لنورٍ أخذ بيدي إلى أبي وأمّي وأخي وأختي، إلى عالم ما وراء النّور.

3- خيط الدّم:

عندما تضيع كلُّ آمالك بالحياة وتحاول النّسيان، نسيان تلك الأيام الّتي مرَّت كأنَّها سنوات، خسرت بها كلّ شيء، لا يبقى لك شيء وتتجرّع أيّام الحياة كأنّها السُّمّ، السُّمّ الّذي تودُّ أن يقتلك ويجعلك تحصل على الرّاحة الأبديَّة.

تلك الأيّام الصّيفيَّة الّتي أعادت الحياة إلى الموت، فيها تمنّيت أن أكون منسيّاً ولكن كنت شاهداً، إنّه يوم الجمعة وبعد أن صلّيت الفجر، أتتني موجةٌ من البكاء والحنين الّتي لم أقدر الصّمود أمامها، أردت النّهوض والمشي فتذكّرت أنّي قد خسرت قدمي، ولكنّني لم أفقد الحبو، جررت نفسي إلى الكرسيّ المتحرّك، جلست عليه وبيدي المثقلتين بدأت أدفع العجلات إلى الدّرج الّذي سقطت عليه والكرسيّ فوقي ولكنّي تجاهلت كلّ هذا وعاودت الصّعود عليه وكلّي شوق إليها، فكنت متلهّفاً إلى رؤية التّراب الّذي يؤويها، وقبل أن يدرك والدي مصدر الصّوت الّذي صدر جرّاء سقوطي كنت قد وصلت إلى الطّريق التّرابيّة، إنَّه طريقٌ طويلٌ وشاقّ على يديّ المثقلتين، ورغم هذا فكلّي أملٌ باللّقاء منها، استمرّيت بالدّفع رغم كلّ تلك السّقطات والحفر حتّى وصلت إليها، بدأت أشتم ريحها، تلك الرّيح الطيّبة الّتي ألفتها، وكأنَّها من بعيدٍ تلوح لي، وشعرها الأشقر تعبث الرّياح به، بدأت أسألها عن حالها، عن حبّها لي... لم تجب، تحت شجرة البلّوط الكبيرة كانت نائمةً وكومة التّراب تغطّيها، موجةٌ كبيرةٌ من البكاء اجتاحت عينيَّ وبدأ الدّمع يسيل منهما ومعه كلّ شيءٍ يسيل، أنفي يساعد في الجريان ولعاب فمي أصبح أكثر لزوجةً، أردت احتضان التّراب لعلّي أشعر بدفء

يديها، ولكنّي نسيت أيضاً فقد أصبحت مشلولاً فسقطت على القبر وكلّي أملٌ بأن أغفو عليه لعلّي أرى وجهها ولو قليلاً ولكنّ الشّوق منعني وأغشي عليّ، فعدت إلى أوّل قصّتي... منذ أن كنت بالمقاعد الدّراسيَّة وحلمي أن أدخل الجامعة، أرى الحياة الّتي سمعت عنها، الحريَّة والأيام الجميلة، الحبَّ الّذي كنت متعطّشاً له، أو لنقل الفراغ الكائن بي، فكلّ شاب به فراغ وكسر لا يجبره إلّا أنثى تحبُّه ويحبُّها، بلغ الجهد منّي مبلغه حتّى تحقّق لي ما أردت ودخلت أوَّل أيّامي إلى الجامعة، هو يوم عاديّ مثله كباقي الأيّام، لا أخفي شعرت بالإحباط قليلاً ولم تمضِ أيامٌ قلائل حتّى تراكمت الدّروس والمحاضرات، إييه لقد تبخَّرت آمالي أمام ثقل تلك الكتب وكأنّي نسيت ما كان يحاك من قصصٍ حول الأيّام الجميلة، ومضت الأيّام تطوي بعضها البعض والقاسم المشترك بيننا نحن الجدد هو الضّياع، فكلُّ شيءٍ لا بدَّ لك من السّؤال عنه، وببعض المرّات تسأل عن أمرٍ وهو أمامك مباشرةً، وهذا ما حدث لي، كانت تائهةً مثلي لا تعرف أين تتوجّه، ضائعةً بين الحشود، نظراتها الطّفوليّة تشعُّ من بحرين زرقاوين لتعكس ضوء الشّمس على وجهي مباشرةً، ساقتني قدامي مباشرةً إليها دون إرادة، ما ما ما هل هل هل... لم أجد غير هذه الكلمات، ضحكت عليَّ بشدّةٍ حينها، ولكنّي لا أُلام أبداً فجمالها كان يعقّد اللّسان ويشلُّ العين عن الحركة، المهمّ وبعد حين من بعض البلاهة منّي سألتها إن كانت تائهةً، ويا لسعادة حظّي كانت تائهةً كما توقّعت، إنّها فرصةٌ مثاليّة، طلبتْ منّي إرشادها إلى القاعة والخبر السّار الثّاني أنَّها كانت ضمن قسمي ومعي بنفس القاعة، فأخذتها وجلست بقربها لنحضر المحاضرة سويّا، لم أفهم أيّ شيء، فكنت حاضراً غائباً، متأمّلاً ناسكاً، شيخاً وراهباً، شاعراً وأحمقاً، لا أعرف من أنا، مضت ساعتان وأنا على ذات الوضعيّة من السّكون والاحمرار، ولم أعرْ الوقت أو المحاضرة أيَّ أهميّة، حتّى انتهى الأستاذ من درسه والكلّ بدأ

بالخروج، أمّا أنا تلك القطعة الخشبيّة الّتي أبت التّحرّك، حتّى وكزتني بقلمها مع ضحكةٍ خفيفة.

-أ لا تريد الخروج؟

-نعم، لا، بلى.

كلُّها أجبت بها فخرجت وتعثّرت أمامها، فضحكت كثيراً على أمري ولكنّي نلت رضاها، لا أعرف كيف هذا ولكن قالت لي: "أنا أميرة، ما اسمك أنت؟" أنّه شعورٌ لا يمكن وصفه حينها هي تريد التّعرّف عليَّ، "أنا عمر"، ولم أنطق بعدها، سارت أمامي ولحقت بها أريد أيَّ كلمةٍ معها، "كيف هو يومك؟" لا أعرف من أين أتتني الشّجاعة، "هو جميلٌ كالعادة وما زلت لا أجد الطّريق إلى القاعة"، عند هذه الكلمات وجدت فرصة البطل، فقلت لها: "ما رأيك أن نكون سويّة نحضر الدّروس؟ فأنا أعرف القاعات وقد حفظتها"، وافقت أميرة ولم تبدِ أيَّ انزعاج بل استمرّت بالحديث عن الدّروس وعن مضمون المحاضرة الّتي كنت تائهاً فيها، استمرّيت بالمسير معها حتّى أوصلتها إلى بيتها ولوَّحت لي بيدها ومضت صاعدةً الدّرج، أمّا يدي فلم تلوُّح لها، فقد شلّت تماماً حتّى صفعتها يدي الأخرى تؤنّبها على فعلتها، لا أخفي أنَّي كنت تائهاً ضائعاً بجمالها الّذي لم أرَ مثله، بقيت أمشي حتّى اصطدمت بعمود الكهرباء لأنّي لم أكن بوعيي، كلُّ المارّة الّذين كانوا من حولي بدأوا بالضّحك، كيف لشابٍّ جامعيّ أن يصطدم بعمود كهرباء بمنتصف الشّارع؟ عدت إلي البيت بعد الضّياع بين الحارات القديمة وأثر الاصطدام ظاهرٌ على جبهتي ممّا جعل رفاقي ينفجرون بالضّحك، واحدٌ منهم كان مزوحاً كثيراً فقال لي: أيَّ حمار رفسك على جبهتك؟ عند هذه المقولة كادت خواصرهم تنفجر لكثرة الضّحك ولكنّي كنت حينها محمرّاً فقام رفيقي ووضع كفه على خدي وأطلق صافرةً عالية، "إنَّ الأخ قد وقع بالحبّ"، واستمرّ الضّحك حتّى دخلت غرفتي دون

أن أكلّم أيَّ أحدٍ منهم فأغلقت الباب ولكن أصوات ضحكاتهم كانت عاليةً فلا يمكن للباب أن يصدّها، وأسمعهم يقولون رفسه حمارٌ على رأسه، لا أخفي أنّي عندما استرجعت الموقف الّذي حدث لي ضحكت كثيراً فخرجت وشاركتهم ضحكاتهم، ومن الغرفة المجاورة خرج أحدهم وقال: "اذبحوا لنا مرطبان المكدوس فأمعاؤنا تصيح"، وبالفعل تكدّسنا فوق الطّبق الّذي لا يحوي سوى ذبيحة المكدوس والخبز... إيييه أيّامٌ جميلةٌ أعيشها فأنامل الحبِّ تلامس وجنتي ولا أطيق الانتظار حتّى يأتي الصّباح وأذهب إلى الجامعة، ليس شوقاً لها فالمعروف عنّي قد كنت طالباً كسولاً ولا أذهب إلّا ندرةً وأبقى نائماً حتّى الظّهيرة، وربَّما تنام المحاضرات الورقيَّة فوق وجهي حتّى أصاب بالاختناق فأستيقظ من ثقلها، عند صباح اليوم التّالي استيقظت نشيطاً ورششت من كلِّ عطرٍ طالته يداي من كلِّ عبوات العطر الّتي بالمنزل وحتى الّتي كانت عبارةً عن ماء فقط يحمل بعض الرّائحة الطيّبة، تأنّقت ولمّعت حذائي ووضعت مثبّت الشّعر على رأسي، حتّى بدا كالأشواك وقلبته إلى الوراء ومضيت إلى جامعتي ورجوت الله أن أجدها في طريقي، لقد مررتُ أمام بيتها متعمّداً ولسعادة حظّي كانت تنزل من الدّرج، توقّفت بمنتصف الطريق رغم أنَّ سيّارةً توقّفت بسببي مع الكثير من الأبواق وربَّما الشّتائم ولكن هذا لا يهم، فأنا أنتظرها حتّى وصلت بقربي وسلّمت عليَّ فتحرّكت وسمحت لتلك السّيارات من ورائي بالمسير، فوصلت سيّارة أجرةٍ أمامي فصاح بأعلى صوته: "الأخ عشقان"، مع الكثير من الضّحك، عند هذا الموقف نظرت إلى وجه أميرة فرأيتها تبتسم ابتسامةً مخفيّة، ممّا زاد من شجاعتي، أمّا جبهتي الّتي كانت متورّمةً فقد لاحظتها وسألت عن السّبب فأخبرتها الحقيقة ممّا دفعها إلى الضّحك وكأنَّ بلاهتي حينها قد أعجبتها، أمّا كثرة العطور المختلفة فقد جعلتها تصاب بالعطاس طول الطّريق ولكنّها لم تبدِ أيَّ انزعاج بل أبدت إعجابها بالرّائحة،

إنّها ذكريات تحملك على الصّبر وتحمّل ألم القتل كلّ يوم، فالأمل باللّقاء بها يجعلك صامداً بوجه الجحيم، وكلّما أغمي عليك لشدّة العذاب تأمّل رؤية ذلك الوجه، يكون لك هذا بين الفينة والأخرى وتعود الذّكريات، أمّا يداي الّتي كانت مشدودتان بقوّة الحديد ومعلّقة بالهواء تحرّكت أصبعاها والحرقة الكبيرة عادت بي إلى اليوم الّذي كنت أمشي بقربها ونتبادل الأحاديث ومن غير شعور مددت يدي وأمسكت يدها وكأنَّ الكون توقف للحظة ما، ما الّذي فعلته؟ لا أعرف؛ فالشّعور غلبني وأمسكت يدها ونظراتي كلّها منصبّة إلى هيجان البحر الّذي سكن عينيها... هدوء وصمت خيَّم الأجواء فلم تعد أصوات السّيارات وأبواق الباعة لها وجود بتلك اللّحظة، "أحبُّك أميرة"... كيف قلتها؟ من أين أتت تلك الجرأة؟ كيف استطعت النّطق بها؟ إنَّه القلب عندما يتفوّق على الحواس ويسيطر عليها ولا تملك إلّا الانصياع لأمره وحكمه، ظننت للحظة أو لنقل تهيَّأ رأسي لاستقبال ضرباتٍ من المحفظة البنّيّة المصنوعة من الجلد وموضوعٌ عليها بعض الكريستالات الزّجاجية ولكنّها كانت أوهاماً ليس إلّا، لم تجب بل ابتسمت بحياء وتركت يدي تعتصر يدها الرّقيقة، أمّا حمرة وجنتيها فقد كانت تحكي قبولها والمشاعر المتبادلة، أكملنا طريقنا إلى بيتها ولم ننطق بعد ذلك الموقف، كانت كلمةً واحدة ليس إلّا، صادقة بكلّ المعاني فلن تُنطق بعدها، واستمرّت تلك العلاقة بيننا وكلّ أحلامي الارتباط بها، فما عدت أرى امرأة غيرها، لا تعنيني كلّ النّساء غيرها، قرّرت خطبتها وبدأت أمهّد للأمر ولكن كان قرارها بعدم الارتباط لحين إكمال دراستها، تقبّلت الموضوع بكلّ رحابة صدر فأنا أعلم مدى إخلاصها فهي لن تفكّر حتّى مجرّد التفكير بالارتباط بغيري.

إنَّها السّنة الأخيرة واقتراب الأحلام من التّحقّق، لم نعرف الرّسوب يوماً، كنّا سنداً لبعضنا البعض وكلٌّ منّا يحمل الآخر نحو المضي قدماً، ولكن إذا شاءت الأقدار لم تقف بوجهها الجبال فما

بالك نحن البشر؟ فقدر الثّورات في بلاد الاستبداد مثل الموت، هي لا بدَّ آتيةٌ، لا تقف لأيّ حدث كان ولا تعرف معنى التّوقّف، تسير على الشّعوب بكلّ مكوّناتها، لم تخلق لتعرف الحبَّ يوماً، لم تخلق لفئة معيّنة دون أخرى فالكلُّ سوف ينغمس بها، حتّى الأطفال والطّيور، حتّى الأشجار والصّخور، الكلُّ معنيّ بها حتّى يزول المستبدّ ومهما كانت التّضحيات لا بدَّ من الاستمرار بالأمر، تبدأ كلمةً بفم طفل، فيقتل الطّفل لأنّه نطق، فتنطق الكلمة ألف مجلّدٍ والطّفل يصبح أمّة، فأصل الأمّة طفل وأصل الكتاب كلمة، ولم نكن نحن إلّا قطعةً من نسيج المجتمع المحترق، نعاني، نتألّم، نريد النّطق والطّيران بعالم لا تقتلك كلمةٌ بوجه مستبد، لا تجعلك كلماتك مغيباً بغياهب السّجن، نريد عالماً يعرفنا ونعرفه لا يتسلّط عليه رجالات الحاكم وأعوانه، نريد وطناً لا يستباح من قبل الحمقى واللّصوص، كانت يدي بيدها معقودةً على نصرة المظلوم وقهر العدوان، كانت بداية الأمر عبارة عن تعبير للآراء مع الجموع الغفيرة الّتي تنطق بالحرّيّة، الحريّة الّتي سوف ندفع ثمنها بلادنا وأرواحنا ولكن من كان يعلم؟ كانت الأحداث في تسارع مستمرّ نحو الأسواء فكلُّ من نطق بالحريّة هو أمام طريق منتهاه الجحيم أو الموت، ولكن الّذي يؤذيك أكثر هو أبناء جلدتك الّذين يؤيّدون المستبدّ بظلمه، ينقلون له تحرّكاتك وكلَّ الّذي تقوم به، التّسارع الكبير بالأحداث أوقف كلّ المعاني والأحلام، جعلها تتوارى بين غيابات القلب، تندفن بين أعماقه وتنتظر الفجر المضيء، الآلام القويّة الّتي تعاني منها من جلّاديك تفقدك الوعي لتعود بك بالذّاكرة الّتي تحرقك هي أيضاً فتزيد من عذابك، سيجارةٌ مشتعلةٌ أطفأها الجلّاد بموضع الرّصاصة بكتفي، جعلتني مغشيّاً عليه لأعود بالذّاكرة أمام الطّفل الّذي جاء به والده وقد بترت يده إلى المشفى الميدانيّ الّذي عملت به مع أميرة، لا أطيق المشهد ولكن عملت جاهداً لإنقاذه، ولكن لا أعلم ما الّذي حلَّ به، إنَّها مجرَّد لحظة

واحدة والمكان تحوّل إلى كتلةٍ كبيرةٍ من اللّهب وأزيز الرّصاص كان أقوى من صوت البرق، مجرّد لحظات وأتى بعدها الجنود وجرّوا أجسادنا المثخّنة بالجراح، ليتني متّ حينها ولكنّ الحياة أبت ذلك، الطّفل ووالده أُخذا إلى غرفة مجاورة وسمعت الكثير من أصوات الرّصاص، أمّا أميرة فقد سيقت معي إلى الجحيم وأعتذر من الجحيم لأنّي شبهت ذلك المكان بها، لم يكن همّي الموت أو أيَّ أمرٍ آخر بقدر ما كان همّي أميرة، كم تمنّيت أن يتمّ إعدامنا ولا نرى منهم الّذي سوف نراه، عُلِّقت إلى السّور الحديديّ ورغم كلّ جراحي كان يتمّ تعذيبي بكلّ الأدوات الممكنة، الحروق وغرس الأسلاك المعدنيّة بكلّ جسدي ليحصلوا على إجابة لم أكن أعلمها، من الّذي كان يقدّم الدّواء لكم والأدوات؟ هل هي جريمة أن تسعف إنسانا ينزف؟ محاولة قطع نزيف يدٍ مبتورة، وضع ضمّادة على عين فقدت، نعم هي جريمةٌ بنظرهم، لم تبق وسيلة إلّا واتّبعوها ولكن ماذا أعلم عن أمر لا أعلمه؟ حتّى أتوا بأميرة وعلّقوها أمامي مباشرة ودون أيّ ستار يستر جسدها، أغمضت عيني ولم أستطع النّظر، الضّرب والشّتائم من غير توقّف فلا شيء سواهما، رصاصتان بساقي وكان أمراً سهلاً، تشريح ظهري بالسّكين احتملته، أظافري المقلوعة لم تعد تهمّني، فأميرة دون ستر يستر جسدها وجلّادٌ يستحي الشّيطان من كفره يقف أمامها، ينظر إليها، يدور حولها ليبدأ بفعلته وينتهك شرفها أمامي، جسدها المليء بالجروح والثّقوب، وكلّ الصّرخات الّتي انطلقت من كلّ مكان بالسّجن لم تمنعه من فعلته، لم تكن تملك أيّ قوّة تدافع بها عن نفسها، وبعدما انتهى منها جرّها على الأرضيّة لترسم خيط الدّم الّذي سوف يبقى شاهداً على خذلان العالم لنا، وألقيت بين الأجساد المنهكة والمهشّمة من النّساء، لا أستطيع وصف ما حدث بعدها فأميرة حاولت الانتحار مرّات ومرّات ولكنّها لم تفلح، حاولت قطع أوردة يديها ولم تفلح، فأيُّ حياة بعد هذا؟ أسبوعٌ واحد، كانت المدّة

ضمن تلك المسالخ فأبي تحرّك مسرعاً وكلّ أقاربي جمعوا كلّ مالٍ يملكونه ودفعوا رشوة ضخمة وأخرجوني مع أميرة الّتي حطِّمت ولم يبقَ من روحها شيء، أدخلني أبي إلى المشفى وتمّ بتر ساقي، وبعد شهر عدت إلى البيت، سألت عن أميرة لأعلم منهم خبر انتحارها فهي لم تتكلّم بأيّ كلمة، خانتني المشاعر والأحاسيس، فلم يعد للعالم معنى دونها، لم يعد لي من العالم أيٌّ شيءٍ سوى الكرسيّ الّذي أخذني إليها لأموت على قبرها وأدفن بقربها.

4- طيفٌ عابر:

لحظةٌ واحدةٌ بين الفراغ والمكان، بين الوجود وعدمه، بين الشّيء واللّا شيء، فتحتُ عينيَّ على مكانٍ لم يره أحدٌ غيري، أعتقد أنَّني كنت على صوابٍ وأنا مخطئٌ حينها، لا أستطيع الرّؤية، لا يوجد أيُّ شيء، لا نور ولا هواء، حاولت النّهوض والحركة، لم أقدر، اصطدمت بجدارٍ حجريٍّ وعليه بعض الطّين الرّطب، بدأت أصرخ وأصرخ ولكنَّ صراخي كان يضيع في الفراغ، أحسست بالضّيق والخوف الشّديد ولكن لا يوجد مهرب، تمنَّيت حينها أنَّني لم أكن، بحالتي تلك رجوت أيَّ شيءٍ يخرجني، يسحبني إلى أيِّ مكان، حتّى جاءت طفلةٌ صغيرة غير واضحة المعالم، وقفت فوق الحاجز الّذي يفصل بيننا ومدَّت يدها وانتزعتني من ضيقي، لا أخفي أنّي كنت حينها لا أملك سوى الرّعب، من تلك الصّغيرة الّتي لا أعرفها ولكن أحسّ بأنّي أعرفها جيّداً، أخذت يدي بيدها وجرَّتني وراءها، لا أعرف إلى أين، حاولت السّؤال من هي؟ من أين أتت؟ فنظرت إليّ نظرةً لا يمكن تفسيرها ولم تجب ثمّ تابعت سحبي من يدي بقوّة وعنف إلى أن وصلت إلى مكان أجمل ما تراه عيني وتوقّفنا به ولكن لم يلتفت أحدٌ إلينا وكأنّنا غير مرئيّين، الكلُّ كان سعيداً، هذا يضحك وذاك يأكل شواءً، جميع أصناف الطّعام والفواكه وما لذَّ وطاب من كلّ شيء، أشكال أجسادهم تدلُّ على رغد الحياة، الكلّ كان يملك بطناً كبيراً وأجساداً كبيرة، من هم؟ لا شيء سوى عدم المعرفة منّي، أجلستني تلك الصّغيرة بمكانٍ يمكنني ملاحظة كلّ شيء ومراقبة المكان بشكل جيّد، قامت تلك الطّفلة بالاختباء وراء ظهري وكأنّها لم تكن تريد رؤية ذلك النّعيم، لم أعر الموقف انتباهي ولكنّني لم أفهم ولم أرَ أيّ شيء غريب على

قدر علمي، حاولت السّؤال من هم هؤلاء؟ كيف لهم كلّ هذه السّعادة؟ ما العمل الّذي قاموا به حتّى نالوا كلّ هذا النّعيم؟ لكنّها لم تجب بل مسحت على عيني وليتها لم تقم بفعلها، رأيت الشّيء الّذي أخافها وجعلها تقف وراء ظهري، كانت بطونهم الكبيرة إنّما هي نار مستعرة ولكنهم لا يشعرون، أمّا رؤوسهم فكانت فارغة وكأنّها قطع مظلمة لا أكثر، ثمّ عاودت المسح على عيني، فرأيت كلّ شخصٍ منهم ومعه فتاة تجرّه وهو لا يدري بها وكانت الفتيات أشبه بالمسوخ، المرض منتشر بأجسادهنّ؛ الجرب والطّاعون والجدري... كلّها قد اجتمعت بأجسادهنّ، حاولت الهرب ولكنّني لا أقدر فطفلتي أمسكت بيدي ولكن هذه اللّحظة بدأت تزداد جمالاً، تلوّنت عيناها بأجمل الألوان وبدأ الإشراق على وجهها، ثمّ نهضت ومشيت وراءها إلى مكان قريب وغاصت تحت ذلك الفردوس، شَخُص بصري وتسمّرت بمكاني، فلا يوجد سوى الرّجال والأطفال والنّساء، كلّهم يقفون ويحملون ذلك الفردوس على ظهورهم، كان الجوع والفقر ظاهراً على وجوههم، ثياب ممزّقة وقروح بكلّ أرجاء أجسادهم، ورغم هذا كان يصدر من أجسادهم رائحة الطّيب ويشعّ من أعينهم النّور، أمر محزن ومريح بذات الوقت، كان من بينهم رجلٌ طاعن في السّنّ ذو لحية شديدة البياض ووجه شديد الإشراق، له رائحةٌ لم أشتمّ مثلها، لم يكن مثلهم فهو لا يحمل على كتفيه أيَّ شيء رغم أنّه كان يبدو أقوى منهم جميعاً بل كان يحاول منعهم من القيام بما أُجبروا عليه ولكنَّهم لا يأبهون به فعيونهم كانت قد سملت وآذانهم قد صمّت، الرجل يحاول مداواتهم ولكنّه غير قادر، فهم لا يعرفون بوجوده ولو علموا به لأزاحوا ثقلهم فوق ظهورهم، أكثر المشاهد الّتي آلمتني منظر الأطفال وهم يحملون الكثير، يريدون الحراك والخروج لكنّهم لا يستطيعون، فالحمل كان ثقيلاً جدّاً فمن فوقهم أناس أحجامهم كبيرة وحملهم صعب، أردت الرّجوع فما عدت أطيق، فحبّذا ذلك المكان الضّيّق الرّطب، فبه لا

ينال من كرامتي، ساقتني تلك الصّغيرة إلى الرّجل العجوز، مسح على رأسي وفتح عينيَّ، علمت من هو وماذا يريد، ضممته إلى صدري ضمّة طويلة تمنّيت أنّها تستمرّ إلى الأبد، فتاتي أصبحت أكثر مخلوق يحمل الجمال، أخذت بيدي وأعادتني إلى المكان الرّطب والضّيّق، ثمّ اختفت، أين أنا؟ صدمت عندما وجدت نفسي مطروحاً على الأرض وقد تبلّل وجهي من ماء الطّريق، عندما صفعني أحدهم... لملمت نفسي وعدت إلى بيتي وغرفتي الصّغيرة، نظرت إلى الزّاوية المهجورة، اعتذرت منها وأخذت صحفي لأنظر إلى ذلك الوجه المشرق فيداوي جروحي ويعلّمني أساليب الحرب، الحرب الّتي ستدمّر الفردوس الّذي يعيش به الأغنياء والحمقى على ظهور الفقراء.

5- نساءٌ في الظّلِّ:

ليس المهمّ أن تجيد قراءة الكلمات حتّى تقرأ الحياة ومن غير الضّروري إجادة الكتابة لتكتب اسمك بين سطور هذه الدّنيا، لم يكن الزّمن قد فعل أفعاله بوجهي عندما كنت أرقبها ورائحة اللّيمون تفوح من الكيس الفارغ الّذي تحمله تحت إبطها وعندما تقترب منّي تلتمس شعري ولربَّما طبعت على وجنتيَّ الكثير من القبل، من المضحك تذكّر رائحة العرق الّتي تفوح منها فهي تعود من السّوق قبل أذان الظّهر بقليل فلم تكن تعرف مزيلات التّعرّق يوماً، ولكن رائحتها كانت محبّبةً لديّ فليس للحبّ رائحةٌ موحّدة، إنّها أرملة الحاج مصطفى الّتي غاب عنها زوجها وترك خلفه ثلاثة أولاد وابنتين، والكبير فيهم أغلب الظّنّ حينها لم يتجاوز العشر سنين من عمره ويمكن القول أنَّي كنت أعتبر نفسي أحد أولادها فأنا لا أفارق بيتهم وألعب مع أولادها ونخرج إلى الحارات والأزقّة، لا نخاف من أحد، فلم تكن الحارات حينها مثل ما عليه الآن، وكثير من الأحيان كانت أمّي تأتي لزيارتها عند المساء ببيتها الطّينيّ فتشعل فتيل السّراج وتقوم بصنع حلوى مكوّنة من الطّحين المحمَّص ويصبّ فوقه دبس العنب فأقوم أنا وأولادها بحشر رؤوسنا ببعض فوق الصّحن الكبير الّذي بداخله الحلوى، وقبل موعد عودة أمّي إلى البيت أتصنّع النّوم فتقسم المرأة على أمّي ألّا توقظني بل تدعني بين أولادها، كانت تلك المرأة تجسّد أنبل المعاني البشريّة من الكفاح والصّمود، تستيقظ باكراً وتصلّي الفجر من ثمّ تذهب إلى حقل اللّيمون وتشتري منه كيساً كبيراً فتحمله على رأسها وتبيعه على رصيف السّوق لتكسب منه بعض المال ومن ربحها تشتري حوائج منزلها، لا أتذكّر يوماً أنّها عادت ولم تبع كامل اللّيمون فهي ذات

وجه مبتسم دائماً وسموحة بالبيع، مضت الأيّام وما زالت تلك المرأة على عهدها في السّعي أمام عائلتها حتّى كبر أولادها وجعلت منهم الطّبيب والمعلّم والصّيدلاني على الرّغم من كونها لم تكن تجيد القراءة أو الكتابة ولكنّها تكتب سطوراً في التّربية لا يمكن لألف امرأة من هذا الجيل أن تكتب سطراً منه، تلك أيّامٌ خلت من الزّمن الجميل يحدث قلب الكتب عن كلّ عظيم، اليوم وبعد تلك المدّة الطّويلة من الزّمن أدخل تلك الأزّقة وأمرُّ بباب بيتها حتّى أعود بالزّمن أيّامَ كان اللّيمون حلواً من يديها فأطرق الباب لأجلس عندها وأطأطئ رأسي بين يديها حتّى تمسح على شعري فمهما كبرت أظلُّ صغيراً أمام ذلك الصّرح الّذي تعرفه الحياة جيّداً، هذا ما كنّا عليه في السّابق، نعرف الحياة ونكتبها على عكس هذه الأيّام نعرف كلّ ألوان الكتابة ولا نجيد كتابة سطر واحد، فلله درُّ كلّ امرأة جلست في الظّل حتّى تنير درب البشر.

6- الوطن والطّبل:

ها أنا اليوم وقد تجاوزت الثّلاثين من عمري، شاهدت أموراً كثيرة وسمعت عن أمور أكثر ولكن هنالك أمران؛ أحدهما علق صوته بأذني تعلَّق القرادة بأذن الماشية والثّاني غرز بعيني مثل سنبلة الشّعير البرّيّ الّذي لا يزال يغرز بعيني وإن حاولت إخراجه اقتلعها، وهو لا يزال ينزل بالجرح حتّى أصاب بالعمى، فمنذ صغري ويوم ساقني أبي إلى المقعد الدّراسيّ، قام المعلم ولقنَّني صوت الطّبل، الصّوت الّذي سوف أسمعه كلّ يوم وعلى مدار سنواتٍ وسنوات، حتّى صرت أردّده دون وعيٍ منّي، أو لنقل بأحلامي وأنا نائم وبالأساس كنت أردِّده ولا أعرف ما يقال، حتّى أنَّنا كنّا نساق كالماشية فقط للصّراخ والهتاف بالشّعارات والأهداف الرّنَّانة، المهمّ في الأمر التّرديد وسوف تتقن الفعل دون إرادة، وهذه الأخيرة مسلوبةٌ من الجميع فلا صوت يعلو فوق صوت الطّبل، وإن حاولت أو فكَّرت بها فإمَّا أن يُخرِسك صوته إن كنت ضعيفاً أو منهك القوى أو تضربك عصاه إن كان لك صوت، والّذي من المستحيل أن يتجاوز مرحلة الهمس فالصّياح على مرّ السّنوات سوف يقطع حبالك الصّوتيّة إن حاولت النّطق بغير صوت الطّبل، الغريب في الأمر أنّ العصا صنعت من أشجارنا، أمّا الّذي تعلّق بعيني ودخل إلى لبّ جمجمتي هو ذلك المكان الّذي يقرع به صوت الطّبل، داخل المدارس والقاعات، على المنابر والصّالات، ضمن الحدائق ومواقف الحافلات، حتّى بغرف النّوم لا بدّ أنّ الموسيقى تذكّرك بصوت الطّبل، وعندها يصبح المجتمع برمّته مُطبلاً، وإن حاولت الفرار ولو بكلمة تريد اتّخاذ القرار يوماً سوف يكون بالجدار أذنٌ وعلى السّقف يدٌ تكتب، عند هذه الحالة إن كنت قد

نطقت بكلمة سوف يتمّ جرّك وإن كنت بين أحضان زوجتك، بالحرب والسّلم، بالتّرهيب والتّرغيب لا بدّ أن يُغرس بك ذلك الطّبل الفارغ الّذي كان يدعى بالقائد، حتّى وإن لم تكن تستطيع السّمع فصوره وأوثانه وأسماؤه بكلّ مكان، حتّى وصل به الحال أن يجعل عقليّة الحذاء تسري بين أرجاء المجتمع، ذلك الحذاء الّذي يجب أن يكون مقدّراً له الاهتراء على ساحات الدّفاع عن الوطن ولكن أصبحت له مهمّة أخرى وهي السّير على دماء من يريد الخلاص، أمّا الوطن الّذي جفّت حنجرتي وحناجر الملايين غيري وأنا أردِّد بحبّه والموت في سبيله لم أرَ منه سوى الحقل الأجرد والمناطق الصّخريّة الّتي ورثتها عن جدّي، أمّا نفطه وخيره وكلّ شيء ثمين به كنت أدرّسه فقط بكتب الجغرافيا، ولكن ما نفعها لا أحد يعرف؟ يمكن لتلك الكتب الطّبليّة أن تحي بداخلك ما يسمّى الوطنيّة والقوميّة، فيجعلانك تموت وأنت راضٍ بحمقك وتلبس حذاء الطّبل، تلك الكلمات تثبت كم كنّا أبرياء، قد نموت في سبيل وطن لا نملكه، بل كان وطنا ما يسمّى القائد وأعوانه، على مدار سنوات طوال ومع بالغ الحزن، هذا ما كان يحدث لنا، تائهون كتيه بني إسرائيل، إلى أن أتى يومٌ وقرّرنا ثقب الطّبل واقتلاع سنبلة الشّعير حتّى وإن كانت سوف تقلع أعيننا، وأردنا الخلاص وبدأ الهتاف، أسال من أعيننا دماء كثيرة واقتلع من أكبادنا أفلاذ غفيرة، وبكت من أعين نسائنا دموع غزيرة، ونحن لهذا محبّون وله راغبون في سبيل اقتلاع الطّبل وأعوانه، بعد مضيّ أكثر من عقد على تلك الحادثة لا أزال أرى سياسة التّطبيل مغروسة بنفوس بعض البشر بل وتعدّى الأمر أنّ الشّخص أصبح يطبّل لذاته فلا قرار غير قراره وأمره صوابٌ دائماً، لا يجيد الحوار، بل أمره تنفيذ القرار، ولكن في قرارة نفسي لا ألومهم فقد كانت حياتهم بمجملها بين المستنقعات الطّينيّة تغلق الأذن عن أيّ كلامٍ غير حديثهم أمّا العلم والمعرفة فقد كانت جريمة عقابها الموت، في النّهاية لم تعد فاتورة الدّماء تهمّ،

لأنّها أصبحت منسيّة، وتجاوزت الأرقام الوهميّة، بل ما يهمّ الخلاص وتحرير الوطن المسبي فهو لنا، غرس شجرة الحقّ بنفوس أطفالنا فهم أملنا، نشر الأخلاق والعلم فهي طريق خلاصنا.

7- عقدٌ بين الجحيم والنّعيم:

كعادتي وبكلّ ليلةٍ أحضرت ما يحلو لي وجلست على شرفة منزلي المطلّ على الزّقاق الضيّق أتأمّل النّجوم والسّماء المظلمة، كنت أظنُّها ليلةً كباقي اللّيالي مظلمةً، ساحرةً، هادئة، حتّى أتت نسائم باردة تتلوها نسائم حارّة، متتابعة كتتابع الغيوم في السّماء، ثمّ أتت صرخات كأنّها نزع الرّوح من الجسد، مددت ناظري بكلّ أرجاء الزقاق ولكن لم ألحظ من أين أتى الصّراخ وكأنّ الأمر لم يلحظه أحدٌ غيري، كدت أصاب بالجنون ما الّذي يحدث؟ هل هذا حقيقيّ أم مجرّد تخيّلات أحسست بها؟ كيف أحسُّ بها وحدي دون سواي؟ لا أدري ولكن دخلت الغرفة وأغلقت كلّ المنافذ وغطّيت نفسي لشدّة خوفي، بقيت صاحياً تلك اللّيلة حتّى شروق الشّمس، نظرت من الشّرفة إلى الزّقاق ولكن كان كلّ شيء طبيعيّاً على عادته، فالنّاس قد ذهبت باكراً إلى الفرن الكائن في نهاية الزّقاق ورائحة الخبز تفوح بالشّارع، وطائر اليمام يصيح على الشّرفات، كأنَّ شيئاً لم يكن، دخلت إلى الفراش وغططت بنوم عميق لشدّة تعبي من تلك اللّيلة، استيقظت قبل العصر بقليل، تفتَّحت عيناي وكأنّ أحداً يريد قتلي واتّجهت مسرعاً إلى الشّرفة ونظرت من أوّل الشّارع إلى نهايته وكان كلّ شيء على أفضل حال، تنفّست نفساً عميقاً وأسندت ظهري إلى السّور الحديديّ وعاودت النّظر ولكن هذه المرّة كان يبدو أنَّها قد خرجت، من أين؟ من ذات الاتّجاه الّذي خرجت منه تلك الأصوات، إنّها هي بثيابها الجذّابة ورائحة عطرها المميَّزة وأحمر الشّفاه ذي اللّون الفاقع على شفتيها، اعتدت على رؤيتها بين الحين والآخر وكان الفضول يقتلني حتّى أعرف من هي أو أين تسكن ولكن من المحال معرفة ذلك، حتّى أنّني سألت

بعض النّاس عنها ولكن لم يكن من الّذين سألتهم أحدٌ يعرفها، لم أعرها الكثير من الاهتمام ولكن كنت أراها بين الحين والآخر وبكلّ مرّة تزداد إثارة ووقعاً بنفسي، حتّى أتى ذلك اليوم، اليوم الّذي كان الزّقاق به خالياً تماماً، وبوقتٍ متأخرٍ من اللّيل سمعت طرقات خفيفة على الباب فتحته وإذا هي دخلت من دون إذن بثياب تشفّ ما تحتها وعطرٍ كثيف وأحمر شفاه فاقع، أحسست بنفسي أسيراً لديها، أمسكت بيدي وساقتني إلى غرفة نومي وقذفتني على السّرير وهمّت بخلع ملابسها، ثمّ تحوّلت إلى ما يشبه الرّيح وحاولت اختراق جسدي المرتعش؛ الّذي احمرّ وارتفعت حرارته، بدأت أتصبّب عرقاً ورجفان قلبي في ازدياد مستمرّ، ولكنّها اصطدمت بشيء ما وعادت ولكن ليست على هيئتها الّتي أتت بها بل كشفت عن وجه أجمل من الّذي أتت به، كاد قلبي يتوقف لرؤيته وبدأت بتغيير ملامح جسدها ووجهها إلى أكثر النّساء جمالاً وشهوة، يمكن القول حينها أنّها أتت بصورة هيلين الطّرواديّة وأجمل نساء الإغريق والرومان ، لم أستطع المقاومة أمام ذلك الجمال وأردتها دخول جسدي بشدة ، ضحكت بخبث وأخرجت ورقة من نار الشّمعة الّتي كانت تضيء الغرفة وطلبت منّي الإمضاء عليها، أردت فعل ذلك بشدّة أين القلم؟ هاتيه بسرعة، لم أنظر ما الّذي حوته تلك الورقة، ازداد ضحكها أمام رجفاني وتعرّقي واحمرار وجهي، قالت: عليك التّوقيع بقطعة من روحك، فقلت: كيف ذلك؟ قالت: دعني أدخل جسدك وأخرج القطعة الّتي سوف تكون الإمضاء، أومأت برأسي موافقاً، حاولت الدّخول ولكنّها صرخت صرخةً كصراخ الميّت المعذَّب، فجسدها قد بدأ يحترق من النّور الّذي ظهر بداخلي فجأةً، ولم تستطع الدّخول والإمضاء لم يتم، فكشفت عن وجه شيطانيّ كاد قلبي يقتلع لرؤيته، هذا ما كانت تخفيه وراء ذلك الوجه، أمّا بالنّسبة للورقة فأردت رؤية المكتوب بها، فكانت بضع كلمات قرأت أوّلها وهي: الشّهوة والتّكبر ولم أستطع

إكمال الباقي فالورقة قد احترقت، عادت إلى ما كانت عليه من هيئة البشر وقالت لقد نجحت بأوّل اختبار لك، وتلك الأصوات الّتي سمعتها كانت حقيقيّة وهي صوت ذلك الرّجل الّذي قدرت عليه وحصلت على إمضائه وأصبحت روحه سجينة وتعذّب بنار الكبرياء، وحصل على كلّ ما يريد من المال والسّلطة والشّهرة وكلّ أمور الدّنيا، عندها جَحُظَت عيناي وتسمّرت قدماي، شلّ جسدي بأكمله ولم أقدر على فعل شيء، استمرّت بالحديث وأنا كالصّخرة غيرُ قادرٍ سوى على سماع كلماتها، ثم قالت: أ ترى ذلك الزقاق؟ أمرُّ به كلّ يوم، بكلّ وقت، لديّ الكثير من المنازل والكثير يريد دخولي، تقريباً دخلت كلَّ بيتٍ به ولكن كلّ البيوت الّتي دخلتها كان أصحابها على ثلاثة أصناف وقد يجتمع صنفان أو ثلاثة بشخص واحد، وهم رجل ذو سلطة لا يملك العلم ولا الإيمان، وشيخه الّذي يفتي له أمره وهو لا يملك العلم أصلاً، ورجل كان يملك العلم ولكنّه قليل الإيمان، هؤلاء الّذين كنت أتصيدهم وآخذ العقود منهم مقابل جسدي ثمّ آخذ تلك العقود وأعلّقها على جدران الجحيم وبكلِّ مرّةٍ أعود إليهم يزداد قوّة الحبل إلى اليوم الّذي لا يعود باستطاعة صاحبه الهروب فألقي بالعهد في الجحيم مع صاحبه إلى غير رجعة، وسأقصّ عليك قصص ثلاثةٍ منهم وكيف دخلت أجسادهم واستطعت السّيطرة عليهم، أمّا أوّلهم كان الحاكم بالطّبع وكان أسهلهم، عندما دخلت بيته للمرّة الأولى رحَّب بي، بل فتح صدره الفارغ مباشرة، فارغٌ من أيِّ حاجز أو حجاب، بل كلّ ما كان يملؤه هو حبُّ المال وكيفيّة قمع من كان يحاول الوقوف بوجهه، لا يوجد ولا حتّى القليل من العلم أو الإيمان، الدّماء على كلّ جوانبه، لا أخفيك أنّ رائحته كانت لا تطاق، أخرجت العقد الّذي عليه الإمضاء بروحه واستطعت اقتطاع جزءٍ منها بكلّ سهولة فقد كانت ممزّقة مهترئة، ليس بها سوى الحقد والكره النّتن، قفز إلى حضني مسرعاً، حينها شعرت بالاشمئزاز منه، لقد لطَّخ

جسدي بيديه ولكنّه لم يكن يمنعني من امتصاص روحه، بل كان يسخر من الجحيم، فلا يؤمن بوجوده، إلى أن أتى اليوم الّذي لم يعد من روحه شيء وسُحب الحبل وقذف في الجحيم وأنت كنت شاهداً على صراخ روحه المحترقة مع الشّياطين والكفرة، ولكن ليس كلّ حاكم استطعت الدّخول إلى جسده، أذكر واحداً ضربني بصبره وقوّة إيمانه حتّى كدت أموت جوعاً أيّام حكمه، فلم أكن استطيع الحصول على أيّ شيءٍ أيّام حكمه، أمّا الرّجل الثّاني الّذي كان يفتي له أمره ويجعل من الدّين ستاراً له، بدايةً كنت خائفة منه بسبب الإيمان الّذي يبدو عليه، أتيت له بثوب مرصّع بالجواهر والألماس، كان من الحاكم أهداها له مقابل أن يجعل من أمره وحكمه يسري على الرّعيّة ويجعل من عقولهم سجناً لا تحتوي إلّا على أفكاره المتمثّلة بحبّ هذا الحاكم حدّ التّأليه، فكلّ ما يأمر به هو أمر مقدّس يجب التّقيّد به ويصدر الأدعية والابتهالات بطول عمره وبقائه وهو يعلم ما يفعله، كانت ليلة تدعو للسّخرية من ذاك المخلوق، شكله وثيابه وحتّى المكتبة الّتي تزيّن منزله، كلّه كان نفاقاً ودجلا مقابل الحصول على جسدي، طلبت منه مثل حاكمه الإمضاء على العقد، وافق مسرعاً وفتح صدره ولكن لا أخفيك أنّ الحصول على قطعة من روحه كان صعباً للغاية ليس بسبب العلم الّذي يملكه، بل كان بسبب الظّلام الّذي بداخله، فروحه سوداء مظلمة والظّلمة كانت بكلّ مكان، والأمر الّذي لا أنساه أبداً هو النّور السّجين بداخله، كان معذّباً بنفاقه وشرّه، كان يعلم الحقّ ويحيد عنه، أخذت قطعة كبيرة من روحه وكان الإمضاء، وكان له جسدي، تبّاً لهما كانا قذرين جدّاً، لا تنظر إليَّ هكذا فأنا لست ما تظنّه، أنا طاهرةٌ، ولكن مثل تلك النّفوس هي الّتي دنّستني، فقلت مستغرباً: كيف تكونين طاهرة؟ لم تجب، بل تابعت: أمّا الشخص الثّالث، فكان الضّحيّة بين الحاكم والعالم، ويا لكثرة هذا الصّنف، يطيع حاكمه فلا يحصل على العلم ولا يتجرَّأ على طلبه، وينقاد بعينيه الّتي أصابهما العمى وراء الشّيخ

المنافق، أو وراء كلّ رجل دينٍ منافق، همّه إرضاء حاكمه، ثمّ أخرجَت صحفاً كثيرة ورمتها بأرجاء الغرفة، كلّ هؤلاء، كلّهم أمضوا على العقد، أصابني الذّهول لهول المشهد، يبدو أنّ أغلب سكّان الحيّ قد تمّ اصطيادهم، ضحكت بهستيرية أمام ذهولي، ما يضحكك؟ قالت: من غبائكم أيّها البشر، الكلّ ينظر إليّ ويريدني بقوّة، بل ويلقي بنفسه في الجحيم لكي يحصل على هذا الجسد الكاذب، ويتركون توأمي الطّاهرة العفيفة، أين هي؟ ما شكلها؟ سكتت وتغيَّر منطقها وقالت إنّها أمامك، عندها وكأنّ جنون البشريّة قد أصابني كيف تكونين وتوأمك بجسد واحد؟ صمتت ولم تجب ثمّ خرجت وهي صامتة، ركضت وراءها لكنّها اختفت ولم تعد أبداً.

كانت ليلة يشيب لها شعر الرّأس ويتوقف العقل عن التّفكير بأحداثها، لم أتوقّف عن البحث عن أختها التّوأم، بدأت أبحث بكلّ كتاب، بكلّ مكان، وكنت ألقف العلم وأحتسيه بل وأنسج لروحي رداءً منه، عندها بدأت أرى وجهها المشرق بمخيّلتي، بأحلامي وعلى أوراق كتبي، ولكنّي كنت توّاقاً لرؤيتها حقيقة، كان لديّ إيمانٌ قويّ يسكن صدري، لقد تعلّمت كلّ العلوم وكلّ أحكام الدّين وقواعده، وهو ذاته الإيمان الّذي مُنع من الدخول إلى جسدي، امتلكت الصّبر، أحببت التّواضع، كرهت المال، أحببت الحكمة وتعلّمتها، لم أعد أريد حتّى التّوأم ذاتها، فقد امتلكت ما أجمل منها، كانت الأيّام ودارت دائرتها وحاكمٌ ظالمٌ يحكم الزّقاق، كان ظالماً جاهلاً، باع روحه لتلك المخلوقة، متكبّراً لا ينظر إلى البشر على أنّهم من خلق الله بل مجرّد أدوات لغاياته وشهواته، فما كان منّي إلّا أن وقفت بوجهه وتحدّيته، لم أصمد أمام قوّته وبطشه، وأمر بقتلي وكان الأمر، تقطّرت الدّماء من جسدي وإذا بتلك الجميلة تحتضن جسدي وأموت بين يديها، سعيداً مستبشراً بوجهها الملائكيّ.

8- رسالة من المهجر:

يقال أنَّ الزّمن هو الكفيل بكلِّ شيء، يحملك إلى النّسيان رغماً عنك ويجعلك تتعايش مع كلّ المآسي الّتي مرَّت عليك، حتّى وإن كان الفقد هو الخسارة الّتي منيت بها فلا بدَّ أن ينسيك فقدك، وبكلّ ثورة مرّت على الشّعوب سواءٌ أ حقّقت النّصر أم باءت بالفشل يكون الفقد هو السّمة الغالبة على الشّعوب الثّائرة، وأكثر الطّبقات تأثّراً والّتي تجتمع عليها لعنات الحياة هي الطّبقة الفقيرة المسحوقة تحت نير الأيام، النّورجُ والقمح هما الوحيدان الصّديقان والمؤنسان لتلك الشّعوب، فكلاهما يتشاركان بالأنين الصّامت، فعندما يأتي الفجر وتصيح الدّيكة يرفع البغل وتلك البقرة رأسيهما، استعداداً للذّهاب للحراثة، فيقوم ذلك الرّجل العجوز بعد صلاته ويصيح على ابنته الكبرى حتّى تجهز له العدّة، وتقوم زوجته بتوضيب الصّرّة وحشوها بخبز التّنور، وحفنة من التّين والزّبيب، والأهمّ إبريق الشّاي وعلبة التّبغ المحشوّة جيداً فلا يمكن العمل من دونهما، وبعد تجهيز العدَّة يركب الرّجل على بغله ويجرُّ بقرته إلى الحراثة، يمكن أن يبقى ساعةً أو أكثر حتّى يصل إلى حقله فهو لا يضايق البغل في السّير ويمشي على مشية بقرته الصّفراء البلديّة، وببعض الأحيان يصل الحقل ويتغيّر مزاجه فلا يقوم بالحراثة، فيطلق لجامهما للرّعي ويصنع إبريق الشّاي وينقضّ على الصّرة ويلتهمها بالّذي تحويه مهما كانت كمّيته، فهو يرى أن يضع كلّ الطّعام بمعدته خيرٌ له من العودة بها إلى المنزل، وعند المساء يعود إلى بيته ويدخل حيواناته إلى إسطبله، وما إن يضع جسده على الأرض حتّى تسأله زوجته عن عمله فيجيبها بأنَّه لم يعمل، وتبدأ جولة من العراك فيما بينهما، ولكنّه لم يكن ليطيل العراك بل يقطع الحديث

بطلبه إليها أن تصنع له حلوى الطّحينيَّة، فتسخر منه بقولها كنت أعمل بثمن طعامك فقط، فتلبّي له طلبه وتعمُّ موجة من الضّحك يتشارك بها كلّ أفراد أسرته، تضع زوجته صحن الطّحينيَّة الكبير ثمّ تشعل سراج الزّيت، ويغمس أصابعه الخشنة بالصّحن ويقطع لبناته القطع، ورغم هذا لا ينسى إبريق الشّاي على موقده الطّينيّ مع الكثير من السّجائر الّتي يتمنّى أن تتساقط من السّماء بدل المطر، هذه كانت الحياة في القرى، بسيطةً وعلى السّجيّة، وعندما صلّى العشاء ووضع خدّه على وسادته، طرق أحدهم الباب طرقاً عنيفاً، من الّذي يأتي بهذا الوقت؟ من المؤكّد أنّه أمر مهمّ، قام فزعاً وفتح الباب، كان شخصاً يلبس السّواد فلا يُرى منه شيء سوى لمعة عينيه، سلَّم عليه وأعطاه ظرفاً، "هذا من ولدك"، عند هذه الكلمات تسمرّ بأرضه، لم يستطع النّطق، لم يعرف أيّ باب يدخل، حتّى اختلط عليه باب الإسطبل فدخل لعند حيواناته، ولكنَّه أدرك فيما بعد أنّ رجلاً كان واقفاً عند الباب فعاد مسرعاً فلم يجده، بحث عنه بطول الزّقاق ولم يعثر عليه، ثمّ عاد مسرعاً إلى زوجته يبشّرها بالرّسالة، هي الأخرى لم تصدّق فهما كانا على ثقةٍ بأنّ ولدهما الوحيد قد قتله الأمن، لأنّه كان مناضلاً وثائراً، على عجل طلبت منه أن يقرأ ما بها، بهذه اللّحظة تبادلا النّظرات فكلاهما لا يجيدان القراءة، وبناته قد حرمن التّعليم، جالت نظراته بكلِّ أرجاء الغرفة فهو لا يعرف ما العمل، الكلّ كان عاجزاً عن القراءة.

-قالت له: اذهب إلى فلان فهو يجيد القراءة.

-قال لها: أ تريدين لنا الموت؟ فهو معروف بعمالته فوالله إن علم أنّها من ولدي لن يصبح عليَّ الصّباح إلّا وأكون بسجون الأمن.

-"ما العمل؟"، قالت له.

-قال لها: نحتفظ بها لحين تعلّم أخته القراءة.

-سوف تنتظر أعواماً إلى أن تتعلّم ابنتك القراءة.

-قال لها" وما بيدي حيلة، فابنك الكلّ يعرفه وأخاف أن يعلم أحد ما بأنّه لا يزال على قيد الحياة وتعلمين عند هذه الحالة ما الّذي سوف يحلُّ بنا.

كانت غصّة وفرحة بذات الوقت، كانوا قد يئسوا من عودته، وعندما بُشِّرا بأنه على قيد الحياة لم تكن لهم القدرة على قراءة كلماته، قام الرّجل بوضع رسالة ابنه بمكان لا يعرفه أحد، وأكمل جسده الحياة على طبيعته، أمّا روحه فقد كانت تحترق كلّ يوم، بعد عدّة أشهر حان موعد أن يضع ابنته في المدرسة، ولكنّه لم يكن يملك مالاً لهذا الأمر، ممّا أجبره على بيع بقرته؛ تلك البقرة الّتي تعني له الكثير، احتضن رأسها وكأنّه يودّع بنتاً له، سلّمها إلى التّاجر وأخذ ثمنها واشترى لابنته حوائج المدرسة، مضت السّنة الأولى وأصبحت البنت تعرف شكل الأحرف وتستطيع قراءة بضع كلمات ولكنّها لا تجيد قراءة الكلمات الّتي تحويها تلك الرّسالة، بضع كلمات كانت قادرةً على قراءتها ومنها أبي وأمّي ونحوها من الكلمات البسيطة، في السّنة التّالية كان عليه أن يبيع بغله، وعندما حضر التّاجر، الّذي سوف يأخذ البغل، نزلت دموع الرّجل فلم يبق له ما يؤنسه فهو رفيق دربه، كم كان يحكي له عن ابنه ويرسم خطط الاحتفال الّذي سوف يقيمه بعودته، كان ينسج القصص عن أحواله، بل كان يشاركه بصرته ويطعمه من الخبز بيده، ولكن ما العمل؟ فالتّاجر ينتظر بباب الإسطبل، ثمّ أخذه من لجامه وسلّمه ثمّ قبض ثمنه، كلّ هذا من أجل أن يعلّم ابنته القراءة، فقد كلَّ الّذي يملكه، لم تعد حياة الرّجل مثلما كانت، أصبح يذهب إلى الحقل وحيداً، يحرث الأرض على يديه، لم يكن ليأكل صرّة الطّعام، بل في كثير من الأحيان يعود بها ولم يمسسها وكأنَّ البقرة والبغل هما اللّذين كان يدفعانه إلى الحياة، أصبح بائساً فزمنٌ طويل يجب أن

ينتظره حتّى تُقرأ رسالة ابنه وخسر البقرة والبغل، كلّ تلك الأمور اجتمعت على صدره ولم يكن ليصمد زمناً طويلاً، بالرّغم من أنّها شهور وتستطيع ابنته القراءة ولكنّها سنوات طويلة على قلبه، عاد مرّة من حقله تعباً كسيراً، توضّأ للصّلاة وسجد لله لكنّه لم يقم، طال سجوده، حتّى انتبهت ابنته إلى الأمر، حاولت تحريكه لكنَّه سقط ولم يتحرّك، مات ولم يعلم الّذي تحويه الرّسالة، مات ولم يتجرّأ أن يذهب لأحد يقرأ له رسالة ولده لأنّه كان ثائراً، هذه هي الشّعوب المقهورة الّتي يتسلّط عليها حكّامها، يحيلون حياتهم سجناً وأكثر، أكملت البنت دراستها وتابعت الأمّ ما بدأه الأب، وعند نهاية العام الثّاني، أحضرت الأمّ الرّسالة لتقرأ سطور ابنها، كانت فرحة لا توصف بأنّه هو الّذي خطّ تلك الكلمات وهو بخير، ولكن الغصّة بموت الأب لم تكن تفارق جدران البيت المقهور، أصبحت البنت فيما بعد معلّمةً تعلّم أبناء القرية وتقرأ الرّسائل لكلّ أهل القرية وهي تتذكّر الرّسالة الّتي مات والدها ولم يعلم محتواها.

9- اعتذار:

يوم جمعةٍ عاديّ يمرُّ على القرية، كلُّ شيء بها يسير على أفضل ما يكون، ولكن لا بدَّ من جولةٍ من العراك الأسريّ كلَّ جمعة، لأسباب جوهريَّة أحياناً والكثير من الأسباب التّافهة، أيُّ أمرٍ لا بدَّ أن يُحدث بلبلةً بين أبي وأمي لتفتح جولة أخرى من جولات العراك والصّياح، أبي لا يريد الذّهاب إلى صلاة الجمعة رغم أنّه يصلّي كلّ الفروض بالمسجد وأمّي تريده أن يذهب، نعم هي على حقّ ولكن ما الّذي يدفع أبي إلى هذا الأمر؟ لا أعرف، وبعد جولةٍ طويلةٍ من العراك بين الذّهاب وعدمه، رضخ إلى قرارها، فجرَّني من يدي وأخذني باكراً إلى المسجد، لم يجلس في الصّفوف الأولى رغم أنَّها كانت فارغةً، أمرٌ ما دفعني إلى سؤاله عن الصّفوف الأولى، ولكنَّه وكزني على صدري وكأنّه يريد قتلي، جلست خائفاً حزيناً لا أعلم ما الّذي دفعه إلى هذا الأمر، اعتلى الإمام المنبر وبدأ خطبته، كانت خطبةً عاديّة لم يكن بها شيءٌ غريب، انتهى من خطبته وبدأ الدّعاء، وبنهاية دعائه لا بدَّ له من الدّعاء لقائد الوطن، فهذا أمرٌ أكثر أهميّةً من صلاة الجمعة بحدِّ ذاتها، وعندما أراد أن يقول اللّهم أدم علينا قائدنا أخطأ وقال: "اللّهم أزل عنّا قائدنا"، بهذه اللّحظة وكأنَّ الزّمن تغيّر عند المصلّين، هو لم يعلم ما الّذي قاله، أحسست بأبي يجزُّ على أسنانه ولكن ما باليد حيلة، نزل الإمام وصلّى بالنّاس وهو غير عالمٍ بالّذي فعله، بدأت النّاس بالخروج واقترب أحدهم يقول له: "أ تعلم ما الّذي قلته؟"، تسمّر بأرضه بعدما علم بالّذي قاله، فقرّر الهروب من البلاد كلِّها، فهو يعلم أنّ أصحاب النّظّارات السّوداء سوف ينكلون به، هرب من بين الجميع، بالرّغم من عدم ملاحقته من قبل أحد، عاد أبي إلى

البيت وبدأ الصّراخ على أمّي، وهو يقول لها اليوم نرى ما الّذي سوف يحلُّ بنا، هاتي ما عندك من الجوارب، كلَّ الّذي تملكينه، سخرت منه أمّي، "ما الّذي سوف تفعله بها؟، بالطبع لن تتاجر بجوارب عفنة"، صرخ عليها للإسراع بالأمر، عند هذا الحدّ أحضرت له ما طلبه وبالفعل لبس كلّ جورب بالمنزل وبدأ يرقب الّذي سوف يحصل، لم تمض ساعةٌ حتّى وصلت سيّارات الأمن وأحاطت القرية من جميع جوانبها وصاحت بالمكبّرات على كلِّ الّذين حضروا الصّلاة، وبالفعل تجمّع النّاس عند باب المسجد، وكان رجال النّظّارات السّوداء مع أسلحتهم، وبدأوا بصفّ النّاس على مصطبة كبيرة وهم يحملون العصي ويضربون النّاس على أرجلهم بما يسمّى الفلقة، وسيلة التّعذيب الأكثر إذلالاً لرجال القرية، الآن علمت لمَ طلب أبي كلَّ جوربٍ بالبيت، فهو يعلم بأمر الفلقة الجماعيّة، لم يسألوا عن اسم الإمام حتّى، فمن المؤكّد أنّ عشرين تقريراً كُتب عن الإمام، بل وربّما أُلّفت كتبٌ عن هذا الأمر، أين الإمام؟ لا أحد يعلم، من المحتمل أنّه قد اختفى بالجبال أو غادر إلى قرية ثانية، لا أحد يعلم، فتوجّهت مجموعة من أصحاب النّظّارات السّوداء إلى الجبال للبحث عن الإمام وبطريقهم لم يعثروا إلّا على راعٍ للغنم لا أحد يعلم عنه الكثير، سوى أنّه قد أتى من عدّة أعوام ويرعى بغنمه، لم يكن ليقترب من أحد ولا يريد من أحدٍ الاقتراب منه، أهالي القرية يظنُّون أنّه أبله ولا يملك عقلاً، عثرت عليه مجموعة من الأمن، وكانوا كلّهم من الحمقى وحتّى لا يجيدون قراءة أسمائهم، المهمّ أنّهم من الأمن، طلبوا منه بأن يعطيهم بطاقته الشّخصيّة، فأخرج لهم البطاقة، تمتم عنصر الأمن باسمه، فهو لم يعرف ما كتب بالبطاقة، المهم أنّه قال: "إنّه هو، عثرنا عليه"، قام آخر بكسر البطاقة ورميها، وسيق راعي الغنم وكأنّهم قبضوا على لصٍّ أو قاطع طريق، لم يقاوم راعي الغنم، فهو لا يعرف ما الّذي حلَّ به، وسيق إلى السّجن، قذف إلى سيّارة الجيب مثل كيس

القمامة، والكلّ كان يتسلّى بضربه، وهو يصيح ويتأوّه من الألم، لا يملك إلّا أن يقول: "ما الّذي فعلته؟"، لم يجبه أحد، بل أعقاب البنادق والأحذية العسكريّة هي الّتي تولّت الإجابة، وصل إلى السّجن وكان لا يعرف له وجه من عين، وكأنّ رأسه قد صارت كرة، فلا أذن ولا أنف ظاهر، كتلة لحميّة مستديرة، كثيرة الألوان وقذف بزنزانة حديديّة منفردة، وبعد عدّة ساعات أتى أحدهم، فقال له الرّاعي: "ما الّذي فعلته؟"، فما كان من منه إلّا أن وضع حذاءه بفمه وأغلقه عن النّطق، الكثير والكثير من ألوان التّعذيب، وهو لا يعرف لأيّ سبب اقتيد إلى هذا المكان، وبعد شهرٍ عرض على القاضي الّذي كانت أمامه عشرون صحيفة، قد كتبت بها، من مختلف التّهم، انتقاص قدر الحاكم وانتهاك حرمته والإخلال بأمن الدّولة، المثير للسّخرية لقد نسب إليه قتل ثلاثة أشخاص، التّقارير على اليمين وكأس النّبيذ على اليسار، لا يهم الأمر، قرأ عليه ما جاء بها، فصرخ الرّاعي: "لا أعرف عن أيّ أمر تتحدّث، فأنا لست سوى راعي غنمٍ لا أفقه شيئا"، فقال له: "سوف نعلّمك كيفيّة أداء خطب الجمعة يا شيخ"، صدم الرّاعي: "أنا لست هو"، وعلا صراخه، عند هذه اللّحظة كان اثنان من رجال الأمن يرافقانه، فانهالا عليه بالضّرب حتّى تكسّرت عظامه وحكم عليه بالسّجن لمدّة عشرين سنة، واقتيد إلى السّجن مثل قطعة القماش لا يستطيع الحراك، وأُدخل السّجن مع السّجناء الّذين اتّهموا بتشكيل حركة دينيّة، لم يكن الرّاعي صاحب دين فهو لا يعرف الصّلاة حتّى، انزوى وحيداً بسجنه مع سجناء الدّين المحافظين، بدأ بالتّعرّف عليهم ليجد نفسه قد سجن بسجن مضاعف، فالكلُّ لم يكن ليحدّثه أو يقترب منه، لا يكلّم أحداً ولا يقترب من أحد، بل يسجّل بذاكرته كلّ الأمور الّتي مرَّت عليه، فهو يتذكّر جيّداً ذات مرّة كيف دخل إلى السّجن فأرٌ كبير وتصارع اثنان على أكله لشدّة الجوع، ولكن الّذي أبقاه حيّاً كلّ تلك المدّة فتحةٌ صغيرة بجانب الباب كان ينظر منها إلى الممرّ، يشاهد الّذي

يحدث بالخارج ولا يعلم أحدٌ بأمرها فهو قد اتّخذ من جانب الباب مكاناً له، ولم يكن ليغادره أبداً، وكلّما سنحت له الفرصة ينظر إلى الخارج، أمّا أكثر الأمور الّتي حفرت بذاكرته صورة الشّخص المحكوم عليه بالإعدام وهو يقول: لا أريد إلّا أن... بفم أحدهم، وبالفعل سيق الرّجل إلى منصّة الإعدام وكانت الغرفة تقابل الثّقب الّذي ينظر منه، لفَّ الحبل على رقبة الرّجل ولكنَّه لم يمت بعد مدّة ممّا أجبر الجلّاد على شدِّ جسد الرّجل حتّى يلفظ أنفاسه، لكنّه تعلّق بجسده وكأنّه يستمتع بالأمر، كان الرّجل عارياً تماماً، ورغم موت الرّجل إلّا أنَّ الجلّاد بقي متعلّقاً بجسده الّذي ارتخت أعصابه فخرج ما بجوفه على فم الجلّاد، لم يعد يعرف الرّاعي هل يبكي أم يضحك على هذا الموقف ولكنّه أخفى ما بداخله ولم يتجرَّأ على نطق شيء، كثيرةٌ هي الأمور الّتي شاهدها الرّاعي، الفظاعة والإعدامات لا يمكن وصفها، مضت خمسة عشر سنة على سجنه، ولم يكن لأحد أن يقترب منه، حتّى جاء أحدهم ونطق برقم معيّن، فالكلّ لم يكن لهم أسماء بل أرقام، كان رقم الرّاعي، أخذه السّجان جرّاً وأمره بلبس ثيابه، فقد أفرج عنه، كيف هذا فهو لا يعرف، وعرض على القاضي الّذي قال له: "نحن كنّا على خطأ، فقد تبيّن لنا أنّك لست الشّيخ، وها نحن نقدّم لك اعتذاراً"، وكتب له الاعتذار على ورقة وأعطاها له، خرج الرّاعي من سجنه، ليس له أهل ولا يعرف أين يجدهم، عاد إلى ذات القرية وهو يعلّق الاعتذار على رقبته، وجد القرية لم تتغيّر وكأنَّ الزّمن قد توقّف، أمّا أغنامه فقد وجدها عند مختار القرية الّذي اعتنى بها، أخذ الرّاعي نصف القطيع وترك نصفه للمختار وعاد إلى جبال القرية وحيداً، وبعد مدّة وجيزة اختفى الرّاعي ولا أحد يعلم أين ذهب، وقد ترك الاعتذار معلّقاً برقبة كبش أغنامه مرفقة بقوله: "فاز صديقنا".

.

10- أموت في المنتصف:

بمنتصف اللّيل وعند نهاية الهدوء، النّاس نيامٌ وكلُّ شيءٍ في سكون، القمر كان هلالاً ويغمر الأرض بأشعّته السّاحرة، يطرق النّوافذ والأبواب ولكنّه يدخل دون إذن، أتذكّر كم كان جميلاً الرّكوب على جناح ذلك الملاك الرّحيم فقد حملنا جميعاً بكلّ رفق وحنان ووضعنا على أجنحته البيضاء والكبيرة، وصلنا إلى القمر وبدأ ينسج من أشعّته زحلوقات لنا ويضع كلّ واحدٍ منا بزحلوقته ويرسله إلى الأرض، فنجتاز النّوافذ والأبواب وندخل إلى أجساد أمّهاتنا حتّى نسكن ذلك الجسد ستّة أشهر ثمّ نخرج إلى العالم، جاء دوري ووضعني الملاك بزحلوقتي وأُرسلت مبتهجاً نحو الأرض، إلى ذلك الجسد الّذي سوف يؤويني، وصلت إليه ولكنّه كان لزجاً دبقاً ونتناً، فلم أرد الدّخول إليه، ظننت أنّي تهت بالعنوان ففضّلت البقاء خارجاً، بقيت تائهاً دون مأوى ولا أعرف أيَّ شيء، ولكن لم يكن الأمر بهذا السّوء فأنا ما زلت قطعةً من النّور ولا يستطيع أحدٌ إيذائي، بدأت أستكشف المكان لعلّي أجد أحداً يؤنسني، قفزت من الشّباك إلى الخارج فوجدت كلبة تبحث عن الطّعام، يبدو أنَّها أمٌّ لعدّة جراء، الغريب في الأمر أنَّها رأتني ولكن لم تكن لتؤذيني، اقتربت منها لأجد بها الكثير من قطع النّور ولكن ليست تشبهني، تبعتها ولم تمنعني حتّى وصلت إلى كهفٍ وبه الكثير من الجراء، علمت أنّها أمّهم، انتابني شعور غريب كيف لم أطق الدّخول إلى ذلك الجسد، وكلّ الّذين كانوا معي قد دخلوا وناموا بأمان ودفء، أمّا أنا فبقيت بالعراء بارداً ولا أجد سكناً، قرّرت الاستمرار في البحث عن السّبب ولكنّي فضلت البقاء مع الجراء تلك الليلة، يبدو أنّ الأمّ قد استأنست بي ولم تبد أيّ انزعاج، في اليوم التّالي عدت

إلى ذلك المنزل وما إن وصلت إليه حتّى سمعت أصوات العراك والصّراخ، المكان كان قذراً والرّجل لم يكن له همٌّ سوى تناول حبوبٍ لا أعرف ما هي، فقد سمعته يصرخ ويضرب وهو يريدها، أمّا تلك المرأة الّتي حاولت الدّخول إلى جسدها فهي الأخرى تحاول التّخلّص من الرّجل بأيّ طريقة كانت فهو لا يعجبها، الجيّد في الأمر أنّه لا يستطيع أحد رؤيتي، وبعد مدّة هدأ العراك بينهما وأنا أراقب ماذا سوف يحدث، وإذ بتلك المرأة تحمل هاتفها وتحدِّث رجلاً آخر، من هو؟ لا أعرف ولكن كان حديثها معه وكلّه كلمات لا أعرف الكثير عنها ولكن يبدو أنّها كلمات جميلة، المهم علمت أنَّ البيت محطم فلم يكن أيٌّ منهما يحمل أيَّ قيمة إنسانية ، وعدت إلى ذلك الكهف فيمكن أن أجد به بعض الرّاحة، بقيت في الكهف عدّة أيّام وبعدها أردت العودة لأرى الوضع من جديد، وعند وصولي تمنيّت أنّي لم أرجع فالوضع كان أكثر ممّا كان عليه في المرّة السّابقة، فالرّجل قد أتى إليه رجالٌ ملثمون واقتادوه وهو معصوب العينين، لا أعرف السّبب، ولم تمضِ بضع ساعاتٍ حتّى أتى رجل غريب ومعه سيّارة فارهة فركبت تلك المرأة معه وذهبا إلى مكانٍ لا أعرفه أيضاً، لم أعرف ما العمل! هل أبقى بهذا المكان؟ تخبّطت كثيراً ولكن قرّرت العودة إلى الكهف والجراء، بقيت على هذه الحالة مدّةً طويلة حتّى كانت ليلةً كثيرة الظّلام، هبّت ريحٌ قوية فحملتني رغماً عنّي وقذفتني بعيداً حتّى أرغمتني على الدّخول إلى جسد تلك المرأة فاخترقته ووجدت نفسي أسكن بجسد طفل، يا إلهي ما هذا يبدو أنّ تلك المرأة هي أمّي والرّجل هو أبي، ما هذه المصيبة؟ خرجت من جسدها وأنا أبكي وأصرخ ليتمّ لفّي بقطعة قماش وأوضع بين يديها، كنت متعباً ولا أريد التّفكير بالقادم، وفي صباح اليوم التّالي أتى رجلٌ له شاربٌ كبير، وأخذني ووضعني أمام باب ذلك البيت والغريب أنّ تلك المرأة هي من قذفتني إلى يديه، لم أكن أملك سوى الصّراخ أمام البيت المهجور، حتّى خرجت

امرأةٌ عجوز وأخذتني وحاولت تربيتي وعملت جهدها، فهي لم تكن تملك ما يعينها على تربيتي، ساءت أموري كثيراً ولم يمضِ أسبوعٌ حتّى عاد ذلك الملاك الأبيض ومدَّ جناحه وأمرني بالصّعود على ظهره، كان شعوراً لا يوصف فقد تخلَّصت من ذلك العذاب، وأنا أتسلق ظهر الملاك رأيت دموع تلك العجوز على حالي، وعندما وصلت ذلك الباب رأيت الكلبة مع جرائها وعيونها منصبة عليَّ، دخلت إلى ذلك الجسد وشمّته ثمّ خرجت وأعلم مدى حزنها، طرت بعيداً نحو السّماء وكليَّ أملٌ وأنا أدعو الله بأن يأخذ حقّي من تلك المرأة وذلك الرّجل، فقد متُّ في المنتصف، سوف أشكوهما إلى الله وأدعو لتلك المرأة العجوز أن أراها في الجنّة فهي لم تقصر بحقّي.

11- المارد والمصباح:

حكاية المارد والمصباح، تلك الحكاية التّراثيّة الّتي يتناولها الجميع، يمكن أن تكون من نسج الخيال ولكن يمكن لها الحدوث.

علاء شابٌ فطنٌ، يحمل شهادة موقّعة من الحياة، يبحث كلّ يوم بين سلال المهملات، لعلَّه يجد ما يسدُّ به رمقه من جوع، وكساء يسترُ به جسده، الفضول يقتله، وما إن يرى أيَّ شيءٍ يستساغ شربه يشربه ولا يبالي، وذات مرّةٍ وجد علبةً برَّاقة الألوان، بها مشروبٌ لاذع اللّسان، دون تفكيرٍ عبَّه ولم يبالِ، ما قد يفعله شرابٌ بعلبةٍ ذات بريق؟ وبعد هنيهةٍ أصابه الدّوار وتحوّل الزّجاج إلى فخار، والقارورة إلى مصباح، مسحه على عجالة، فخرج منه ماردٌ يقال له بجالة، شبيك لبيك عب... أنت أيها الفتى! لن أكون عبداً لك، ولك أمنية واحدة، مسح علاء عينه، فصار أسوداً حتّى أذنيه، هي حقيقةٌ إذن، ردَّ بجالة: اطلب بعجالة، لك من الأمنيات واحدة لا سواها، قال علاء: أ لأتّني مسكين لي أمنية؟ وكنت تعطي ثلاثاً على مرّ السنين، حسنٌ، أريد واسطةً، ضحك بجالة وقال: واسطة يا هذا؟ أ لا تريد قصراً أو مالاً؟ هي لك ولن تنال غيرها، همهم وغمغم بجالة وأتى بالواسطة، وكانت ذات كرش كبير، محمولةً على كرسيّ وسرير، طلب علاء منها بيتاً وسيّارة وقصراً وعِمارة، فقالت: أبشر، فتح المارد فاهه، وسال اللّعاب على شفاهه، من حمقٍ وتعجّبٍ رآه، ثمّ طلب علاء من الواسطة أن يأمر المارد بأمنيات ثلاث، ردَّ المارد: هي أمنية لا سواها، فقالت الواسطة: اخرس وحقّق له من الأمنيات الثّلاث، فصغر بجالة وكان لعلاء من

الأمنيات ثلاث، ومرَّت ساعة من الزّمن ليجد نفسه وقد استفاق على لسع البعوض والذّباب والقارورة بيده وما بها صار إلى ذهاب...

12- غزّة أرض اللّيمون:

حيث تولد الشّمس كلّ يوم، يضع اللّيمون بناته على الرّصيف، يتهافتن بقوّة لرؤية أشعّة الشّمس المحجوبة من دخان الحرب، الحرب الّتي اقتلعت قلبي وهي بعيدة عنّي آلاف الأميال، فتلك اللّيمونة هي الّتي أنجبتني، أنا الزّيتونة الخضراء الّتي قطعت أغصانها فلا أستطيع الحراك، من يقنع العالم أنّ اللّيمون والزّيتون هنّ أمهاتنا؟ حالهنّ كحال باقي الأمّهات في العالم ينجبن أطفالاً ويحببن رجالهنّ، يعملن بالحقول ويصنعن الخبز والقهوة كلّ يوم، يربّين حيواناتٍ أليفة ويحلبن الشّياه، وفي المساء يحتضنّ أولادهنّ ويتلمّسن شعورهم ويقصصن عليهم الحكايات حتّى يأتي النّوم ويأخذهم إلى عالم السّلام، من يقنع العالم أنّ صغار اللّيمون لا يحملون السّلاح ولا يقتلون ويحبّون السّلام؟ أين المرايا المخبّأة ضمن النّفوس البشريّة؟ كلّها تحطّمت، فأيّ عين تنظر إلى مرآة نفسها ترانا ولكن العيون أصابها رانٌ فلا ترانا، كلّ المسمَّيّات الرّحيمة الّتي أطلقتها البشريّة أضلّت طريقها لمولد الشّمس وسارت وراء الغربان تحلّق حيثما يحلّقون ويجتمعون بساحاتهم وقيعانهم يخطّطون ويدبّرون خطط أخذ حياة اللّيمون، وكلّ يوم تحلّق أسرابهم وينالون من بناته وأولاده، عبثا يحاولون ولو اجتمعوا له فمحال أن يموت اللّيمون.

13- جناح من الظّلّ:

لعلّي من الّذين قد جرى القلم بين أيديهم ومن الّذين نطقت الكلمات على ألسنتهم وبكلّ يوم أحاول ترتيب مصفوفة الحياة لعلّي أجد لها جناحاً من الظّلّ يأخذني بعيداً إلى عالمٍ ينصفني وينصف كلَّ من حمل الكلمة لواءً له، لكن الواقع يقذفني بعيداً إلى أرض الواقع بعيداً عن كلّ منال حلمت به... الأمل، وحده الأمل يسوقني بيديه إلى العالم الفاضل حيث يجلس الإنسان قبل وقوفه فالحياة لا يمكن الوقوف لها إلّا بالجلوس إلى القراءة، وها أنا قد جلست وأطلت الجلوس حتّى ذخرت كثيرا من القليل، حاولت النّهوض مراراً ولكنّني تعثرت ولم أجد كتفاً يحملني إليه كأنَّ الأرض قد أغرمت بأولادها ما همّها منهم من عشق العلم وجرى وراءه ملتقماً له. فالدّنيا قد أسدلت ستارها عن ثمارها وازَّينت لمن أراد لها خاطباً حتّى إذا أتى العرس أدارت ظهرها وسقطت زينتها ليسقط خاطبها من دون أثر، كثيرةٌ هي المواقف الّتي أيقظتني من رقاد حلمي الأزلي فالتّاريخ يصفعني بكثير من قصصه الّتي خطّها بين صفحاته الصّفراء عن أناس أماتتهم كلماتهم أو طردوا وماتوا من قراهم الّتي بذلوا لها أعمارهم لخدمتها فهل هذا هو المنطق البشريّ الّذي يكره كلّ من يريد الخلاص للّذين أضناهم تعب الجهل وعدم الإدراك أم أنَّ البشر على طبيعتهم لا يحبّون الجلوس وهم في مسيرٍ دائم يدهسون كلّ من يجلس وإن كان جلوسه لهم فما الّذي يدفعهم إلى النّكران ومواصلة تعذيب أبناء الكلمة، إنّه رجل من خلفهم يجلس على كرسي ويلتصق به يحمل السّياط بيد والخبز بيد أخرى ومن غير المهمّ أن يكون له عقل يفكّر فالمهمّ ما وضع بين يديه وما تركه العامّة عنوةً إمّا وراء رغيف الخبز أو أمام السّياط، نحن

هنا أمام مجموعة من الأضاحي والقرابين الّتي قدّمها ويقدّمها جلادو العصور للبدائيّة العقليّة الّتي تسري بين الدّماء الزّرقاء لبعض النّفوس الّتي تحبّ الكرسي والسّلطة أكثر من حبّهم لذواتهم، لعلَّ دافع التّملّك الشّخصيّ يلعب دوراً هاماً هنا فمنذ الصّغر ينشأ المستبدُّ على الحصول على ما يريد وهذا يتناسب تناسباً طرديّاً مع امتلاكه للعلم السّخيِّ الّذي هو للبشرية جمعاء فمن المحال أن يجتمع بصدرٍ واحدٍ علمٌ حقيقيّ وكرسي يلتصق بالجسد إلى الممات، فتنساق تلك النّفوس البدائيّة إلى حمل السّياط والخبز وتصبح الشّعوب قطعاناً تساق لتدهس الّذين جلسوا وراء كلماتهم وأفكارهم، صحيحٌ أنّ السّياط والجوع سلاحان شديدان ولكن لن نذوق فاكهة من دون غرسٍ للعلم وإن كانت السّقيا هي الأرواح، فحبّذا تلك السّقيا وتبّاً لكلّ جلاد بدأ بالقلم وانتهى بحامله.

14- عيون الملائكة:

انشقّ النّور عن النّور، عن زيتونة خضراء تعصر زيتا من عين تضيء بين المشرق والمغرب، لتشرق شمسا تحتهما فترسم حمرة الحبّ داخل ضلوع القمر، قمر أضاء براءة على جنبات الخيام، تلك الأقلام أحطّمها لأجلك صغيرتي، لأنّها كتبت عنك الدّموع ولم تقرأ، كتبت لأجلك ولم تسمع، كتبت بدمائك قبل الأحبار، كتبت لأجلك ولم تر النّور، تلك العيون الّتي سُكنت بنور أسود ولم تجد من يحملهما لرؤية الكتاب السّماويّ الّذي حفظنه ولم يرينه وكان بالصّدر جنّة خضراء وارفة كأنّها الفردوس تحت عرش الرّحمان، تقول كلّ يوم هنَّ يؤلمنني ولا صوت يسمع، وكأنّ صوتها ظلٌّ قد سرى من غيمة بأرض واد سحيق فيُرجع الصّدى ألما تهتزّ الجلاميد لأجلها كلما أنّت، آه صغيرتي لك ما ملكت من كلم وإن لم يكن بيدي حيلة سواه، قد غاب عنك النّور فما رأيت أحرفي، وقد غابت عنّي الهناءة ليوم رؤياك مبصرة ترين النّجوم اللّوامع في سماء دنياك.

15- عصفورة الخليل:

المكان بين الخيام والزّمان متوقّف بين أجنحة الظّلام والعمر حمل تابوتا بين الأنام، أمّي... ما الّذي أنا فعلته حتّى إذا قذفني رحمك رمتني يداك واخترت الرّحيل؟ أنا صغيرة لا أقوى، حتّى البكاء يتعبني ومن نسمة الصّيف أحمل بردا يمغص قلبي لست أقوى على شيء لا أعرف سوى الدّموع والبكاء ورغم صراخي لم تلقميني ثدييك، تجاوزت صراخي وبكائي ولففتني بخرق وأعطيتني لأبي الّذي خلعتيه وكأنّني خرقة زادت من اللّفائف لفّة ليس إلّا، أبي... سامحك الله فليس بيدك حيلة حاولت العناية بي ولكنّك فشلت فلست تعرف أمور الصّغار، لا تملك ثمن الحليب فأطعمتني الماء ممزوجا بالنّشاء لعلّه يسدّ رمقي ولكنّك أفنيت جسدي، ليس لي عمّة تدير أمري ولا جدّة فتحنو على حالي، كم كنت مجهدة جائعة ولا أملك إلّا نظرات أذابت قلب كلّ من رآني ولا أملك البكاء فهو خارج قوّتي... رحمك الله يا من حملتني ولست بأمّي وسرت بكلّ طريق لعلّ الشّفاء يكون من نصيبي، سأخبر الله كيف حملتني طول الطّريق رغم الشّمس الحارقة إلى كلّ المشافي، سأخبر الله أنّ عينك لم تنم طوال سكرات موتي، سوف أرجو الله بأن يكون لك بكلّ دمعة جنّة هي ملكك، لا تحزني فقد أصبحت عصفورة الخليل كافلي ولن أرضى حتّى آخذ بيدك إلى الجنّة... لا تحزني فأنا قد شبعت من بعد جوع، معافاة من بعد مرض، سعيدة من بعد حزن، لي كلّ ما أطلب فأنا مكفولة من قبل الخليل...

الفهرس

المقدّمة: 5

الإهداء: 6

غربالٌ أم كتاب؟ 7

ما وراء النّور: 11

خيط الدّم: 17

طيفٌ عابر: 25

نساءٌ في الظّلِّ: 28

الوطن والطّبل: 30

عقدٌ بين الجحيم والنّعيم: 33

رسالة من المهجر: 38

اعتذار: 42

أموت في المنتصف: 46

المارد والمصباح: 49

غزّة أرض اللّيمون: 51

جناح من الظّلّ: 52

عيون الملائكة: 54

اليَاسمِينُ المُعذَّب

إبراهيم إسماعيل الصعب

978-9947-725-14-5